قضية تأميم

النفط العراقي (١)

د. محمود محمد الحبيب
ــ العراق

النفط العربي سلاح ذو حدين ، فهو لنا ، وهو علينا .. انه يدر الموارد الهائلة ، بحيث اذا استغلت بحكمة وتخطيط علمي صحيح فانها تنقل البلد النامي الى بلد صناعي متقدم في غضون عقد أو عقدين من الزمن .. والنفط ، من جهة اخرى ، قد تستغله الشركات الأجنبيـة المنتجة كأمضى الأسلحة فتقلل انتاجه وأسعاره وتتلاعب بحساباته فلا يدر الا القليل ، وبهذا يحطم الاقتصاد القومي اذا كان معتمداً على هذا المورد ، ويجعل من البلد حملاً ضعيفاً تجاه ذئب مسعور .

---

(١) تسلط « المعرفة » أضواء على النفط العربي ، وتفتتح حواراً لمعرفة رأي الاختصاصيين في مدى نجاح تأميم هذا النفط ، وتستهل الحوار بهذه الدراسة للدكتور محمود محمد الحبيب أستاذ الاقتصاد في جامعة البصرة .

أن احصاءات الدخل القومي في العراق تنطق بهذه الحقائق التي لا ينكر وجودها الا من يعيش في برج عاجي، والا من يدفن كالنعامة رأسه في الرمال..

لقد كان إسهام عوائد النفط في الدخل القومي خلال الفترة ١٩٥٣ - ١٩٦٣ يتراوح بين ٢٠٪ الى ٢٥٪ من المجموع الاجمالي Gross Nationa Income، ولكنها أخذت بالتناقص خلال السنتين ١٩٦١ ثم ١٩٦٢، اذ ظلت في حدود ٩٥ مليون دينار التي درتها سنة ١٩٦٠. أما السبب الأصلي فهو صدور القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١، الذي انتزع من شركات النفط العاملة ٩٩٫٥٪ من الأراضي التي كانت في أطر امتيازاتها القديمة.. وفي الوقت الذي لم يسجل فيه القطاع النفطي زيادة ملموسة في انتاجه، فإن بقية القطاعات الاقتصادية قد سجلت زيادة قدرها ٨٪ في عام ١٩٦١ عما كانت عليه سابقاً، ثم ٩٪ في السنة التالية..

قد يقال ان الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٥ قد لمست زيادة في الصادرات النفطية بنسبة ٣٥٪، ولكن هذه الزيادة تبدو قليلة بالمقارنة مع صادرات الدول المنتجة الأخرى اذ كانت الزيادة في صادرات النفط كالآتي: ٧٩٪ في ايران، ٩٠٪ في الكويت، ٦٨٪ في العربية السعودية، و ٥٦٪ في قطر واندونيسيا وفنزويلا. بعبارة اخرى، ان شركات النفط في العراق قد لجأت الى ضغط اقتصادي علينا بعد تشريع القانون رقم ٨٠، وهذا استنتاج صحيح لا يقبل الرد.

لقد ثار جدل قوي على الصعيد الأكاديمي الجامعي وغير الأكاديمي في العراق حول قضية تأميم النفط العراقي.. وتمتد جذور الحوار الى سنة ١٩٥٢ حين تمّ تعديل اتفاقية امتياز النفط.. ثم ارتفعت رياح الحوار ثانية بقوة إذ حركها مؤيدو التأميم عندما أعلن الدكتور مصدق في ايران تأميم النفط الايراني. وتجدّدت الدعوة بعد الهجوم الثلاثي (الانكليزي - الفرنسي - الاسرائيلي) على مصر في سنة ١٩٥٦، ثم بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أطاحت

بالحكم الملكي في العراق ، وبعد ثورة ١٤ رمضان ، ثم بعد نكسة ٥ حزيران ١٩٦٧ .. ولم ينقطع الحديث أو يتهافت الحوار بل تحول من مجرد دعوة تحتضنها بعض الفئات ، الى مطلب وطني وهدف قومي سال في مصبات الندوات والمؤتمرات والبحوث والأندية والمجلات التخصصية ومحاضرات الاساتذة في صفوف جامعات العراق .

ما السبب في كل هذا ؟ ولأجل مَن كل هذا ؟

ليس هناك مجرد سبب بل عشرات الأسباب .. ولكننا نؤكد على سبب مهم بينها هو أن صناعة النفط أصبحت القطاع الرئيسي في هيكل الاقتصاد العراقي ، وهيا كل اقتصاديات البلدان العربية المنتجة للنفط ، أو المستفيدة من عبوره عبر أراضيها .. ولما كانت ملكية وادارة وانتاج وتسعير وتسويق وتطوير هذه الموارد النفطية تقع تحت سيطرة الامبراطورية النفطية الاجنبية ، فقد اصبحت اقتصادياتنا تحت رحمة وأهواء مجالس شركاتها ثم الحكومات الاستعمارية التي تؤيدها وتدعمها قانونياً ودبلوماسياً وعسكرياً ...

هنا جانب الخطورة اذن ... هذا الدعم الحكومي بكافة أنماطه والذي رأينا تطبيقه في التدخل في قضايا البلدان العربية الداخلية حيث رسمت لبعض دولنا السياسة التي يجب أن تنتهج ، وحيث أرغم بعضها الآخر على انتهاج خط معين يضمن لشركات النفط امتداد القوة ومزيداً من ارساء القواعد .. وأخيراً ما نسمعه حالياً من اسطورة الفراغ السياسي والعسكري الذي تتحدث به بريطانيا بعد انسحابها المزعوم من الخليج العربي .

وتنبع الخطورة أيضاً من أن شركات النفط العاملة قد استطاعت أن تثبّت أقدامها عن طريق امتيازات قديمة وتشريعات حكومية فُرضت على البلدان

العربية في أوقات وظروف لم يكن فيها لشعوب هذه المنطقة رأي فيما جرى واتفق عليه .. ونظراً لما تتمتع به شركات النفط من سيطرة احتكارية عالمية على تسويق النفط ونقله واسعاره ، فانها تمكنت من خنق كل رغبة تحررية من قبضتها الفولاذية ...

وهناك جانب مذهل من الصورة ، وهو قصة الأرباح الهائلة التي تجنيها امبراطورية النفط المكونة من ثماني شركات[1] تؤلف الكارتيل النفطي العالمي المعروف . ان هذا الكارتيل النفطي Petroleum Cartel يسيطر على حوالي ٩٠٪ من الانتاج والتسويق والنقل والتصفية خارج اطار العالم الاشتراكي ... ونستنتج من الدراسات المختلفة ان ٣٣٪ من رؤوس الأموال المستثمرة الاميركية هي في صناعة النفط واستخراجه في الدول الأجنبية ، وان حوالي ٥٠٪ من أرباح بريطانية تأتي من استثمارات خارج بلادها[2] ، بينما تعيش شعوب الشرق الأوسط

---

(١) يتألف الكارتيل من: ستاندرد اوف نيوجرسي ، وستاندرد اوف كاليفورنيا، وماكوني موبيل ، وكلف كوربوريشن ، وشركة تكساس ، والشركة البريطانية للنفط ، وشركة شل (بريطانية - هولندية) والشركة الفرنسية .. وتتجسد قوة الكارتيل في أنه يملك ٩٢٪ من احتياطي النفط العالمي (عدا الدول الاشتراكية) و ٨٨٪ من انتاج النفط ، و ٧٩٪ من تكرير النفط المنجز ، و ٨٥٪ من التكرير التركيبي ، و ٦٦٪ من أساطيل نقل النفط ، و ٩٨٪ من خطوط أنابيب نقل النفط الخام ...

(٢) تشير مؤسسة آرثر دي ليتل (شركة استشارية اميركية) الى أن أرباح شركات النفط العاملة في الشرق الأوسط تبلغ ٦٦٪ من رؤوس الأموال المستثمرة في المنطقة، بالمقارنة مع ١٢٪ من الأرباح التي تجنيها اكبر الصناعات في بلادها .. وقد قدر الربح اليومي لهذه الشركات من نفط الشرق الأوسط بـ ١١ مليون دينار ، وانها خلال الفترة =

وفنزويلا في فقر مدقع واقتصاد الكفاف في الوقت الذي تجهزان فيه العالم بأمره بأربعة اخماس احتياجاته من النفط

التأميم ليس بدعة عراقية :

التأميم ، في جوهره ، ملكية الدولة لوسائل الانتاج والموارد الطبيعية في البلاد ، ونقلها من الملكية الخاصة الى الملكية العامة . والتأميم ليس بدعة جديدة بل انه نابع من حياة الأجداد الأوائل ، فالملكية العامة كانت دستور الحياة الاقتصادية .. وجاء الدين الاسلامي فقوى اركانها على أسس صحيحة ولكنها أمتن ، وان لم يهدم الملكية الفردية بل حدّد اهدافها .

وفي صناعة النفط امثلة تأميم جمة ... لقد أممّت دولة المكسيك نفطها في عام ١٩٣٨ بفضل تعاون الحكومة والشعب . وانتهت حركة مماثلة في فنزويلا الى حل وسط ، هو مناصفة الارباح في سنة ١٩٤٨ وما تلاها .. وتحركت ايران مطالبة بعين اتفاقية فنزويلا ، ولكن مماطلة الشركات استمرت من سنة ١٩٤٨ الى ١٩٥١ مما دعا الحكومة الى إعلان تأميم النفط في ١٥ آذار (مارس) من ذلك العام . ونجمت عن ذلك مضاعفات داخلية وخارجية انتهت بهرب شاه إيران الى ايطالية ثم حدوث انقلاب عسكري دموي حركته وساندته قوى اجنبية (أميركية بصورة خاصة) اطاح بالحكم القائم ، وعودة الشاه واختفاء مصدق ، بطل حركة

= ١٩٤٨ - ١٩٦٠ قد جنت أرباحاً تقدر بـ ٨٠٠ مليون دينار . ويظهر الجدول الآتي الاستثمارات والارباح خلال ٩٥٦ — ٩٦٠ :

السنة	الاستثمارات (ملايين الدنانير)	الارباح (ملايين الدنانير)	نسبة الارباح
١٩٥٦	١١٤	٧٤	٦٥٪
١٩٥٧	١١٧	٤٠	٣٦٪
١٩٥٨	١٢٣	٨٣	٦٨٪
١٩٥٩	١٢٥	٨٢	٦٥٪
١٩٦٠	١٢٥	٦٦	٧٦٪

التأميم ، من المسرح السياسي ، واستحواذ الشركات النفطية الاميركية على ٤٠ ٪ من أسهم الشركة الانكلو – ايرانية بعد أن كانت الملكية بريطانية محضة .

ماذا عن موقف العراق ؟

كان الشعب العراقي وطليعة مثقفيه وأحراره يرقبون أحداث تأميم النفط على المسرح الدولي ويتساءلون : لماذا لم تتحرك حكومة العراق تجاه هـذا الإجحاف الذي لحق بالعراق بفعل امتيازات نفط منحتها حكومة عثمانية دخيلة على هذا الوطن ؟

وحين أحجمت الحكومة وخارت تحرك الشعب ، والشعوب دائماً وأبداً هي القول الفاصل في قضايا تقرير المصير .. وتحركت جبهات المعارضة في مجلس الأمة العراقي ، ونطقت افتتاحيات بعض الصحف الحزبية منادية بالتأميم ، وتمطّت الحركة الى قوة عارمة اضطرت الحكومة الى الاسراع بالاتفاق مع شركات النفط بتعديل امتياز النفط في سنة ١٩٥٢ وإقرار مبدأ مناصفة الأرباح أسوة بفنزويلا والعربية السعودية ..

لم تكن الآراء في العراق تسير في خط واحد ، إذ وقفت بعض الفئات موقف المعارض من فكرة التأميم التي ملأت الأجواء . ومن هذه الفئات ، الجبهة الموالية لحكومة نوري السعيد في مجلس الأمة ، والإقطاعيون والمتعصبون لشركات النفط والمنتفعون من ورائها ، وجـاء في مذكرات أحد أقطابهم العبارة التقليدية : « المناداة بتأميم النفط العراقي شعار شيوعي يقصد من ورائه تعطيل الثورة وإشاعة الفقر والبطالة »[1] .. ولست أدري أية ثورة عناها ، وأي

(١) انظر خليل كنة : « العراق : أمسه وغده » (بيروت ١٩٦٦) ص ١٧٤

فقر تحدث عنه حين كان ٩٧٪ من الشعب يعيش فقيراً وجاهلاً ومريضاً في بلد يطفو على بحيرة من الذهب الأسود ... ويرتفع صوت قريب العهد قائلاً : «التأميم في العراق لن ينجح ما لم تتفق جميع الدول المنتجة للنفط في المنطقة على خطة تمويل موحدة في آن واحد »(١) .

الحوار المعاصر : كيف نخطط ؟ أتأميم أم ماذا ؟

لنراجع ادبيات النفط – وما أكثرها – لنرى وجهات النظر ...

(أولاً) : يقترح أحدهم مخططاً مبنياً على سياستين (٢) : (الأولى) سياسة في المدى القصير وتقوم على إنشاء قطـاع نفطي مستقل يستغل الأراضي المنتزعة بقانون رقم ٨٠ ، والاستثمار في الحقول التي ثبت وجود النفط فيها ، وتحريك شركة النفط العراقية الوطنية من الجمود الذي ران عليها ، وتطوير القطاعات الاقتصادية الأخرى ، وغربلة السياسة المالية ، وإعادة النظر في السياسة التجارية ، وزيادة حصة العراق في صندوق النقد الدولي لضمان مورد مالي يحصل عليه العراق عند الأزمات بشكل قروض .. (السياسة الثانية) تتبع خطوط المدى الطويل وتقوم على تأميم النفط ، شريطة ان نكون قد طوّرنا القطاعات الاقتصادية الأخرى لنستطيع مواجهة المشاكل التي ستظهر في السنة الأولى من التأميم .

---

(١) انظر الرأي في مجلة البترول العربي والاقتصاد (بغداد – ايلول – تشرين الأول ١٩٦٦) .

(٢) الدكتور حسيب خير الدين في كراس : دور النفط العربي في معركة التحرير (ندوة في ١٩٦٧/٦/١٧) ، ص ٣٦ – ٣٧

(ثانياً) : **القائلون بأن التأميم في الوقت الحاضر عملية انتحارية:**

يقول الدكتور شفيق الأخرس: « التأميم حالياً هو بمثابة انتحار »[١] ويعطي ثلاثة أسباب في دعم استنتاجه :

١ – سبب سياسي : قائم على واقع الدول العربية فهي غير متفقة فيما بينها ، وان اختلافها في الرأي والسياسات وانقسامها على نفسها ، سيجعل منها جبهة متصدعة امام التكتلات النفطية وامام الشركات المستثمرة .

٢ – سبب فني : قائم على فقدان الفنيين الذين يديرون صناعة مؤممة، ولو أن وعياً بدأ يظهر في الميدان . ان العالم العربي ، كما يقول ، لم يهيء نفسه الى استثمار هذه الثروة النفطية ، وهو غير مهيأ الى هذه المهمة الدقيقة المعقدة .

٣ – سبب اقتصادي : اقتصادي بمعناه العام ، أي المالي ، فليس لدى العرب رؤوس الأموال الضرورية لهذه الاستثمارات .

وفضلا عن هذا ، فالدكتور الأخرس يعتقد ان عين الأسباب الثلاثة تصح في عدم قدرة الدول العربية على تسويق نفطها كما يتفاءل بعض المتحمسين الذين يرون الأمر سهلا .. ومع هذا ، فانه يرى في تعريب القطاع النفطي – كما يدعو له بعضهم – حلاً معقولاً . ويقصد بالتعريب ان نفرض على هذه الشركات أن تؤهل العناصر الفنية اللازمة من بين الوطنيين ، وإنشاء صناعات نفطية .. الخ . ويرى عين الرأي بالنسبة الى إنشاء قطاع نفطي وطني مستقل .

أما زهير مكداشي [٢] فيؤمن بأنه حين نناقش قضية التأميم او عدم

---

(١) الدكتور الأخرس، عضو وفد الجمهورية العربية السورية في مؤتمر الاقتصاديين العرب الأول الذي عقد في بغداد في ١ – ٨ تشرين الثاني ١٩٦٥ . انظر كتاب : وقائع وأبحاث المؤتمر ، (بغداد ١٩٦٧) ، ص ٣٣٠-٣٣٣ .

(٢) عضو الوفد اللبناني الى المؤتمر المذكور في الهامش السابق .

التأميم فيجب ان نضع ، فوق كل اعتبار ، قضية الحصول على اكبر منفعة اقتصادية من هذه الصناعة . أمـــا التأميم بحد ذاته فقضية ثانوية . وعليه، اذا كان في نظام « المشاركة » تحقيق لهذا الهدف ، فيفضل على التأميم . أما إذا كان التأميم سبيلنا الى الحصول على أكبر نفع ممكن فعلينا تطبيقه .. المهم ، كما يؤكد مكدانشي ، هو ان نجني اكبر فائدة اقتصادية للبلد بشكل عوائد نفطية ، وتصنيعه وعن طريق خبرائه وفنيه وأسواقه وعماله ...

وردد غانم العقيلي - عضو وفد العراق - القول بأن التـــأميم في ضوء ظروفنا الحاضرة لن يحقق الهدف ، وان سياسة العراق النفطية تتفق مع ماقاله الدكتور الأخرس، وهو ان عملية تأميم منفردة هي عملية انتحارية قبل كل شيء» ويضيف قائلاً: ان اللجنة العراقية التي ذهبت الى لندن للتفاوض مع شركات النفط تمسكت بالواقع ولبس الشعارات ، وتوصلت الى النتائج التي رفعتها بتقريرها الى الجهات العراقية المختصة [1].

(١) تشكلت لجنة وبدأت عملية المفاوضات منـــذ أواسط سنة ١٩٦٣ الى أواسط سنة ١٩٦٤، دون أن يعلم الرأي العام العراقي شيئاً عما يدور وراء الكواليس . ثم تشكلت لجنة رسمية استمرت في المفاوضات لغاية حزيران ١٩٦٥،حيث وقع الطرفان بالأحرف الأولى على مسودتي اتفاقيتين . وتألف الوفد من عبد الله اسماعيل وغانم العقيلي وصالح كبة وعبد العزيز الوتاري . أما تقرير الوفد فقد نشر في عدة مصادر منها « مجلة دراسات عربية » لشهر كانون الأول ١٩٦٦ .

لقد ثارت ضجة كبرى في العراق والدول العربية حول هاتين الاتفاقيتين اللتين أريد من ورائها نسف كل ماحققه القانون رقم ٨٠.وقد أفرد عبد اللطيف الشواف رداً مسهباً على تقرير الوفد والاتفاقيتين نشره بشكل كتاب بعنوان « قضية النفط العراقي » في سنة ١٩٦٧ وجاء في ٣١٢ صفحة من القطع المتوسط . ونجم عن هذه الضجة تراجع الحكومة عن اتخاذ قرار بصدد تنفيذ الاتفاقيتين .

وتكلم الدكتور رجائي ، عضو وفد (ج.ع.م) في المؤتمر ، فرد على الدكتور الأخرس بالقول بأن النفط السوري مؤمم ، وان سورية ليست عازمة على الانتحار إذ ان التأميم ليس عملية انتحار وإنما شق الطريق وان تأخـذ دولة عربية زمام المبادرة بشجاعة لتتبعها دول عربية نفطية اخرى ، فسلاح النفط أمضى الأسلحة ، وان باستطاعتنا استخدامه ضد الاستعمار أحسن استخدام[1].

ورد الدكتور شفيق الأخرس بأنه يتفق والزميـل بأن (ج.ع.س) لا رغبة لها في الانتحار ، ولكنها لم تؤمم النفط ، بل قررت استثمار نفطها بنفسها وعدم منح امتيازات جديدة .. وأضاف قائلاً : ان سورية لم تقل بتأميم النفط لأن التأميم ، في لغة العلوم الاقتصادية والنظم ، نقل ملكيـة شيء قائم من فرد او جماعة الى ملكية عامة .. كما أنه أعرب بحرارة عن انه قد أيد سياسـة الحكومة النفطية ، أي خلق صناعة نفطية وطنية مستقلة لأسباب ثلاثة : (١) انه مادامت سورية لم تمنح امتيازات، فانها لن تدخل في دوامة الامتيازات (٢) ان حجم النفط السوري صغير وقد اكتشفته الحكومـة ، وعليه فهي لاتحتاج الى استثمارات جديدة للبحث عن شيء قد لايكون موجوداً (٣) تجزئة مشروع استثمار النفط الى ثلاث مراحل : تطوير وتنمية الحقول ، نقل النفط ، تكريره[2] .

أما الدكتور جابر جاد عبد الرحمن ، عضو ج.ع.م ، فقد نادى بتأميم النفط على ان تراعى ظروف البلد العربي الذي يقوم به ، فالظروف تتباين بين بلد وآخر .. وضرب مثلاً بتجربة تأميم شركات النفط الأجنبية في ج.ع م. وكيف

(١) وقائع مؤتمر الاقتصاديين ، مصدر سابق ، ص ٣٤١ .

(٢) عين المصدر ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

أن الشركة العامة للبترول قد نجحت في أعمالها واستثماراتها وادارتها وفي تغطية احتياجات الجمهورية ثم في تصدير النفط الخام الى الخارج . . ويستنتج بأن الامكانيات التأميمية قد تنجح اذا توفرت الطاقات البشرية والمادية. ويختم النقاش قائلاً : يجب ألا نردد القول بأن النفط سلاح انتحاري ، لأن هذا يولد اليأس في النفوس .

(ثالثاً) : أما ابراهيم علاوي فيتحدث عن مبررات تأميم النفط كسياسة وهدف (١) في العراق :

(١) المبررات الشرعية او القانونية : ان الامتياز المعطى الى الشركة في ٢٨ حزيران ١٩١٤ قد كان من عمل الدولة العثمانية ، وهي ليست بذات حق في تسليم ثروات العراق الى شركات أجنبية ، خاصة وان السلطان قد أعلن ان أن ولايتي الموصل وبغداد تعودان الى خزانته الخاصة ، ولم تعترف الشركة له بهذا الحق ولا الامتياز ، كما أن الولايات المتحدة رفضت الاعتراف به . . كما ان اتفاقية سنة ١٩٣١ التي ابرمتها حكومة نوري السعيد مع الشركات قد استنكرها الشعب العراقي .

(٢) مبررات اقتصادية : اعتمادنا على النفط في ٨٠٪ من مواردنا المالية ، وبسبب ظاهرة التبعية الاقتصادية وارتباطنا بالتبعية النفطية . كل هذا يجعل من الاستقلال الاقتصادي للعراق خرافة في الماضي والحاضر . . وابراهيم على حق في ذلك (٢).

---

(١) انظر كتابه البترول العراقي ومعركة التحرر (بيروت ١٩٦٧)، ص١٦٥

(٢) انظر الدكتور محمود محمد الحبيب « سمات الاقتصاد العراقي » مجلة المعرفة (دمشق - تموز ١٩٦٩) ، ص ٥٨ - ٧٧

(٣) مبررات سياسية (١) : لقد اتاحت امتيازات النفط الدول الغربية التدخل في شووننا بكل مناسبة . كما أن ثورة تموز ١٩٥٨ ،وان كانت قد ازاحت العهد الملكي ، ولكن ركنين من اركانه قد ظلا : القطاع النفطي الأجنبي ونفوذه وأوانه ، ثم النظام الاقطاعي الذي هُدِمَ جزئياً بقانون الاصلاح الزراعي ..

ويكتب **الدكتور محمد سلمان حسن(٢)** بحماس في ضرورة تسخير النفط العربي كسلاح حاد في معركة المصير، ثم في السبيل الى التأميم نفسه كهدف. انه ينظر الى انتـــاج النفط وضخه كمنطلق للعمل ، فيدعو الى تطبيق واحدة من ثلاث خطط :

أ ـ عدم ضخ النفط كلياً الى موانىء الشحن البحري . ولكنه يشترط إجماعاً عربياً على ذلك ، وإلا فان المخطط يبقى مشلولاً وينهار .

ب ـ عـــدم تصدير النفط الى الدول التي تساند الوجود والعدوان الاسرائيلي (كبريطانية والولايات المتحدة والمانيا الغربية) . هذه خطة يؤمن هو نفسه بأنها صعبة التحقيق او التنفيذ لأن بريطانية تملك ٤٠ ٪ من اسهم النفط الايراني و ٥٠ ٪ من اسهم النفط الكويتي ، كما انها تستطيع تحويل ما يشحن من آبار هاتين الدولتين الى أسواقها وأسواق المانيا الغربية بعد وصول الشحنات الى السوق الايطالية. هذا عدا ماتحصل عليه من نفط خام من فنزويلا والولايات المتحدة.

جـ ـ لما كانت الخطوة الأولى ذات نتائج سلبية ، والخطة الثانية صعبة

---

(١) انظر ايضاً محمد احمد « الدور السياسي لشركات البترول » مجلة عالم الاقتصاد (بغداد ـ تشرين الاول ١٩٦٨) ، ص ١٧ ـ ١٩

(٢) الدكتور محمد سلمان حسن : نحو تأميم النفط العراقي (بيروت ١٩٦٧) ، ص ٣٠ ـ ٨٢

التطبيق فانه يحبّذ اللجوء الى ما أسماه بـ « تقنين النفط العربي » .. ويعني بذلك، اتفاق عدد من الدول العربية المنتجة للنفط على تحديد انتاجها السنوي، وإحكام المقاطعة النفطية ضد اسواق الدول التي تساعد اسرائيل . ومع هذا ، فالدكتور حسن يعترف ايضاً بأن مخططاً كهذا يتطلب وجوداً سياسياً متكاملاً في البلاد العربية ، وسيادة تامة على اقتصادياتها ومواردها الطبيعية ، وان لها كياناً دولياً معترفاً بـه [1] .

أما بصدد التأميم كمرحلة لاحقة ، فانـه يدعو الى « التأميم الجماعي » في البلدان المنتجة للنفط كافة ، أي أنها عملية موحدة . ان ردود الفعل ، كما يتوقعها، ستكون أحد أمرين :

(أ) - انهيار صرح الكارتيل النفطي الدولي كاحتكار عملاق [2] وتحوله الى مؤسسة تجارية تتاجر بالنفط كأية سلعة اخرى، وفي هذه الحالة فان مهمة الكارتيل تبقى مجرد وسيط بين الدول العربية المنتجة للنفط والأسواق الدولية المستهلكة .

(ب) الاحتمال الثاني نشوب حرب استعمارية جديدة يكون مآ لها اما نهاية الاستعمار الجديد وانتصار الاشتراكية في نطاق عالمي ، او الاحتلال المباشر للدول العربية لحماية المصالح النفطية الاستعمارية .

قلنا ان الكاتب المذكور من المؤمنين بفكرة التأميم الكامل للنفط على نطاق اقليمي Complete Nationalization من الناحية النظرية، ولكنه يدرك بعين الوقت أن التأميم صعب التطبيق لتباين ظروف البلاد العربية وانظمة الحكم فيها

(١) معنى هذا ان المحميات ذات النفط في الخليج العربي تطرح من القائمة لخضوعها للنفوذ البريطاني

(٢) للمزيد من المعلومات عن الاحتكار النفطي ؛ احتكار القلة Oligopoly انظر الدكتور محمد لبيب شقير: التنظيم الاحتكاري للسوق العالمية للبترول، القاهرة ١٩٦١).

ونضوجها السياسي وتقدمها الاقتصادي – العلمي – التكنولوجي ومواقف ساستها وقادتها من قضية النفط وعوائده . . . الخ . . فهل معنى هذا وأد فكرة التأميم ؟

كلا . . . انه يعتقد ان التأميم قد يبدأ بصورة فردية اذا تهيأت لإحدى الدول العربية او مجموعة منها الظروف الموضوعيه المواتية ودونما انتظار للعمل الجماعي . . وعليه فهو يكتب : « ان وجد بلد عربي تتوفر فيه شروط نجاح التأميم اكثر من غيره فهو العراق، لأنه أقدم البلدان العربية المنتجة للنفط في بداية انتاجه ، وفي بداية استقلاله السياسي ، وفي تطور ملاكاته الإدارية والفنية ، وفي توافر موارده الاقتصادية الأخرى ، وفي خاصية شعبه الثوري » .

ولكن ، ربما قال المتعنتون التقليديون : لماذا التأميم ؟ لماذا يا سادة ؟

هنـاك عشرات الأسباب ، فلنركز على أربعة رئيسية فيما يراه الكاتب نفسـه (١) :

(١) ان الاستثمار الاجنبي في قطاع النفط اصبح مركزاً ، وخطراً على سيادة العراق الاقتصادية والسياسية (٢) .

---

(١) نحو تأميم النفط العراقي ، ص ٩٩ – ١٠٣

(٢) يتبلور هذا الرأي اذا علمنا ان قيمة الناتج النفطي يمثل حوالي نصف قيمة الناتج الكلي في القطاعات الاقتصادية كافة ، و ٢٥ ٪ من الدخل القومي ، وان الخطة الاقتصادية والبرمجة التنموية تعتمدان اعتماداً كلياً على عوائد النفط (لها ٥٠ ٪ من العوائد) ؛ وان الميزانية العامة للدولة قد اصبحت بدورها تعتمد على العوائد النفطية بنسبة ٥٠ ٪ الى ٧٢ ٪ لتغطية نفقات الدولة الهائلة .. أفلا تكفي هذه الحقائق المذهلة لهز الضمير الوطني ؟

لنتذكر أيضاً بضع حقائق سابقة : انه في الوقت الذي تصاعدت فيه عوائد =

(٢) عجز شركات النفط العاملة في العراق عن تطوير الموارد النفطية تطويراً يتناسب مع احتياطي النفط في العراق وحقوله المكتشفة وثروته الضخمة المطمورة ، ثم عجزها عن تطوير صناعة النفط الخام (الصحيح ، وليسمح لي الزميل الدكتور محمد سلمان حسن ، هو عدم رغبة الشركات في قصة التطوير عن سابق اصرار) والغاز الطبيعي والصناعات البتروكيماوية .

(٣) سيطرة الشركات النفطية بصورة كلية على الانتاج واسعاره مما جعلها دولة مستقلة داخل دولة اخرى ، وعليه فهي تهدف الى تحقيق مصالح الاحتكار العالمي وارساء قواعد الاستعمار السياسي والتبعية الاقتصادية بقوة لاتقهر .

(٤) أن هذا الاستثمار يقوم على عقد « الامتياز » ، اذ تحول الشركات ارباحها الى خارج البـــلاد ، ومعنى ذلك عدم فسح المجال للاقتصاد العراقي للتفاعل والنمو .

أساليب التأميم :

هناك ثلاثة اساليب لوضع التأميم موضع التنفيذ : التأميم الشامل ، والتأميم الجزئي ، وتأميم حصص من يسندون اسرائيل [١]

= النفط في فنزويلا وايران والكويت والسعودية ، فان العراق لم يتسلم غير خمسة ملايين دينار في سنة ١٩٥٠ ، ثم ١٠ مليون دينار في سنة ١٩٥١ ، فأقل جداً من ٥ ملايين دينار خلال الفترة التي سبقت عام ١٩٣٧ . ومع هذا فقد سكت قادة العهود السابقة عن هذا الغبن الذي لحق بالشعب العراقي ، مادامت ارصدتهم المالية تتصاعد وكراسيهم القيادية مريحة وراسخة !

(١) ربما يخيل الى القارىء اننا قلنا هذا فيما سبق من الصفحات ، ولكن ماقيل قد كان في اطار الحديث عن ايقاف الضخ ، عملية تخدير موقت ، ولكن التأميم عملية جراحية تهدف الى استئصال العضو المريض في كيان القطاع النفطي .

التأميم الشامل كاسمه .. انه السيطرة الجماعية العامة Collective control على كافة ممتلكات الشركات النفطية العاملة في العراق . وخطوة جبارة كهذه تتطلب عدة شروط يوجزها الدكتور محمد سلمان حسن كالآتي : أولاها وركيزتها الصلدة دعم قوي من جميع الدول العربية المنتجة للنفط للعراق حين يؤمم نفطه .. وبالتالي تقنين انتاج النفط في حقولها بحيث لا يُعوّض ماسيقل انتاجه في العراق ذلك الصعود في الانتاج الذي ستلجأ اليه الشركات لسد النقص من جهة ، وللضغط اقتصادياً على العراق من جهة اخرى . كما ان التقنين سيُشعر الدول المشترية بالحاجة الى النفط .. وثالثها تطبيق سياسة التقشف الاقتصادي في السنة الأولى من التأميم . وهي سياسة لامفرّ منها ، لقلة الموارد المالية وصعوبة تسويق النفط في المدى القصير .

ولكنّ واقع الدول العربية المنتجة للنفط لاتتوفر فيه الشروط الموضوعية .. فمثلاً ، نلاحظ ان السياسات النفطية تتباين كالآتي : **المملكة العربية السعودية** تسلك سبيل التعاون مع شركات النفط ، سواء على ضوء الامتيازات القديمة (كما هي الحال مع شركة ارامكو) ، أو على ضوء الامتيازات الجديدة . كما ان السعودية تؤمن بمبدأ « المشاركة » في الانتاج والارباح ، وتقف من اية سياسة نفطية اخرى موقف الرفض لأنها وجدت في سياستها السبيل المثلى لمصالحها .. اما **الحكومة الليبية** فسياستها مبنية على اسس « الامتيازات » ، وذلك وفق توصيات منظمة (الأوبك [1]) O. P. E. C. ، أي مبدأ تنفيق الريع ثم حساب الضريبة على اساس الأسعار المعلنة ، ومبدأ توزيع الامتيازات على شركات كثيرة ... اما

---

(١) الأوبك منظمة تأسست في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٠، وتضم الدول المصدرة للنفط، حيث اشترك في عضويتها العراق وايران والكويت والسعودية وقطر وفنزويلا، =

دولة الكويت فتؤمن بسياسة نفطية قائمة على شقين : الامتيازات والمشاركة ، اي دخول شركة النفط الوطنية الكويتية كشريك . كما انها حصلت مؤخراً على ٢٥٪ من سوق اسبانية النفطي ، بالاتفاق مع شركة النفط الاسبانية .. وتتبع **الجمهورية الجزائرية** عدة سياسات ، منها التعاون مع فرنسة في نظام المشاركة ، ومنها سياسة الامتيازات القديمة .

ماذا عن سياسة العراق النفطية ؟

اني اتفق مع الدكتور محمد سلمان حسن بأن العراق قد ظل دونما سياسة نفطية واضحة السمات لغاية سنة ١٩٦٧ .. كما ان الشركة النفطية قد وُلدت - كما يقول - وهي مصابة بمرضين : فقر الدم لعدم تخصيص اراض استثمارية لها (رغم القانون رقم ٨٠) ، ثم الكساح ويعود لإهمال الحكومــة

= ثم انضمت ليبيا واندونيسيا في سنة ١٩٦٢ وابوظبي في سنة ١٩٦٨ .مركز المنظمة في جنيف ، وتهتم بصورة خاصة بالدفاع عن حقوق الدول المصدرة للنفط ، قبل اهتمامهــا بشركات النفط نفسها .. سبب تشكيلها تدهور الاسعار المعلنة للنفط الخــام المنتج في الشرق الاوسط في اواخر آب (اغسطس) ١٩٦٠ ، والتي لجأت اليه الشركات كعمل انفرادي دون استشارة الحكومات المعينة . وقد دعا العراق الى عقد المؤتمر الاول لمنظمة الأوبك في بغداد في ١٠ ايلول لمعالجة المشكلة ، وحضر المؤتمر ممثلون عن العراق وايران والكويت وفنزويلا ، ثم ممثل عن امارة قطر بصفة مراقب . ثم تلاه اجتماع آخر في تشرين الثاني حضرته لجنة على مستوى عــال ، وضعت نظام المنظمة الذي تم اقراره في المؤتمر الثاني في مدينة كاراكاس في فنزويلا في سنة ١٩٦١ .. هل تستطيع المنظمة ان تكون ذا صوت داو في قضايا النفط : ان جوابي بنعم فهي تضم دولاً تملك ٧٠٪ من مجموع احتياطي النفط في العالم ، وتصدر من النفط الخام مايعادل ٤٠٪ من حاجــات السوق العالمية ، ويمتاز الشرق الاوسط بضخامة الاحتياطي النفطي ورخص كلفة الانتاج.. كل ماتحتاجه المنظمة ان تعمل يداً واحدة وبدون تصدع .. السؤال المهم : هل ترغب في ذلك؟

لها تماماً .. وبالطبع فان ملاحظة الزميل قد اصابها التغيير في هذا العام، اذ بدأت الشركة تتحرك في بداية طيبة ، الأمر الذي نأمل له ان يثمر وينجح ، وان كنا لانتعجل التقييم ، فالتقييم في هذه العجالة غير موضوعي . وكباحث اكاديمي، فإني لن اتسرع ، لأظل موضوعياً ما حييت ...

الصيغة الثانية للتأميم هي التأميم الجزئي كما يقول الكاتب (لازلنا مع الدكتور حسن في هذه الجولة) ، أي تأميم جزئي من الدرجة الأولى .. معناه انه استثنى الأسهم الفرنسية ، لسبب رئيسي هو ان الحكومة الفرنسية تقف الى جانبنا في الكفاح ضد الصهيونية العالمية وربيبتها اسرائيل ، ولكنه يشمل رؤوس الأموال البريطانية والاميركية والهولندية والفردية . أما متطلبات التأميم وشروطه، فهي كما في التأميم الشامل .

وتحدث الكاتب عن الصيغة الثالثة ، فأسماها بتأميم الحصص الاميركية ـ البريطانية فقط . وعلل السبب بأن هاتين الدولتين تعملان بصورة مباشرة في مساعدة اسرائيل ، ولأنها قد استنزفتا ثرواتنا الطبيعية ولم نجن منها الا العداء السافر والمؤامرات الدولية .[1]

---

(١) يبلغ مجموع رؤوس أموال هاتين الدولتين ٩٥ ٪ من مجموع رؤوس الأموال النفطية الأجنبية المستثمرة في العراق . ويقترح عند القيام بتأميم كهذا :

آ – اخضاع شركات النفط الى قانون الشركات العراقي .

ب– الزام أصحاب الحصص الفرنسية والهولندية والفردية بتقاضي حصصهم من النفط عيناً .

جـ – التزام العراق بتطبيق منهج تقنين انتاج النفط العربي ومنع تصدير النفط العراقي الى اسواق بريطانية والمانيا الغربية والولايات المتحدة .

يكون الانتاج في السنة الأولى من التأميم ٥٠ مليون طن ، تكون حصة العراق منه ٦٠٪ أي ٣٠ مليون طن ، ثم تجري المناصفة بين العراق وبقية الحصص النفطية؛ =

(رابعاً) : أما الشيخ عبد الله الطريقي ، المعروف في الوسط الاقتصادي بالخبير العربي في شؤون النفط ، فآراؤه صريحة ، اذ انه من اكبر دعاة التأميم ، لأنه يؤمن بأنه ليس هناك من رد وطني حاسم على الدول المستعمرة الا تأميم النفط، لاسيا وقد اصبح التأميم خطوة معترفاً بها في اطر القانون الدولي العام ، واعتبرها فقهاء القانون عملية مشروعة [١] .

فمثلا : يرى (الدكتور ألن فورد) ان التأميم اذا تبعه دفع تعويض مناسب وعادل ، قاعدة اقرتها كتابات فقهاء القانون الدولي وقرارات التحكيم الدولية [٢].

ونحا هذا النحو فقهاء آخرون ..

= فيأخذ العراق ١٠ ملايين طن ، ويصبح لديه ٤٠ مليون طن ، يصدر منها الى الدول الاشتراكية والأفرو – آسيوية وغيرها ٣٠ مليون طن . ويكون المورد المالي ، كما يتوقع الدكتور حسن ، حوالي ١٦٠ مليون دينار كحد اقصى ، أو ٢٠ مليون دينار كحد ادنى . .

لمعرفة الطريقة التي استعملها في حساب هذه العوائد من النفط المؤمم من حصص الشركات الانكليزية والاميركية، راجع كتابه: نحو تأميم النفط العراقي ، ص ١٠٩ – ١٢٠

(١) انظر كتابه «البترول العربي سلاح في المعركة» (منشورات منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٧) وآراءه في مجلة « دراسات عربية ، شهر ايار ١٩٦٥ » وفي مجلات تخصصية اخرى .

(٢) اقرت انكلترة قرار حكومة المكسيك بتأميم النفط في مذكرة مؤرخة في ٨ – ٤ – ١٩٣٨ ، واقرتها اميركا في رسالتين الى السفير المكسيكي في ٢١ – ٧ – ١٩٣٨ و ٢٢ – ٨ – ١٩٣٨ . راجع غرين هاكورث في مجلة دايجست اوف انترناشينال لو ، مجلد ١١١ لسنة ١٩٤٢ ، ص ٦٥٥ – ٦٦٥ كما استشهد بها الطريقي في المصدر اعلاه.. كما أن القرار الأول رقم ١٨٠٣ المؤرخ في ١٤ – ١٢ – ١٩٦٢ للجمعية العامة للأمم المتحدة قد اكد مبدأ السيادة الدائمة لأي بلد على ثرواته وموارده الطبيعية ، وهذا تأكيد بأن التأميم عملية قانونية شرعية .

ويفيدنا الشيخ الطريقي بهذا الشأن، فيكتب بأن التأميم لكي يصبح عملية شرعية ، فإن الفقهاء يرون ضرورة توفر الشروط التالية : أ - انه يتم لتحقيق المصلحة العامة ، وهذا متوفر بالنسبة للنفط العربي ؛ ب - دفع تعويض مناسب لمالك المشروع المؤمم .

هنا ينقسم فقهاء القانون الى ثلاث فئات : (١)

١ - فئة لاتحبذ التعويض ، على شرط الا يكون هناك تمييز بهذا الصدد بين الاجنبي ومواطن الدولة التي قامت بالتأميم ، فاذا لم يعوض المواطن فلا حق للاجنبي بالمطالبة بالتعويض .. ويمثل هذه الفئة الفقهاء الشيوعيون وطائفة من الغربيين امثال ديجي وبيكار وستروب وجون فشر وبريرلي .

٢ - فئة ترى ان التعويض، وان كان ضرورياً ، إلا انه ليس من المحتم ان يكون تعويضاً كاملاً، بل يجب ان تؤخذ حالة البلاد المالية بعين الاعتبار. وينطق الفقيهان لابراديل ولوتر باخت باسم هذه الفئة .

٣ - فئة غربية، تعتقد بدفع تعويض كامل وعادل . والدفع ليس من الضروري ان يكون فورياً، بل خلال عدد معقول من السنوات .

ان الطريقي متحمس الى تأميم النفط كضرورة قومية ومطلب وطني ، وهذا ما دارت عليه نقاط بحوثه وخطبه التي ألقاها في عدد من المؤتمرات النفطية والاقتصادية التي عقدت في العواصم العربية في السنوات الأخيرة .. ولم تلق آراؤه ترحيباً قوياً من الكثيرين .. ويكتب ابراهيم علاوي بأن آراء الطريقي أثارت ثائرة بعضهم، فقد هاجم عبدالرحمن البزاز (الذي كان سكرتير منظمة الأوبك في سنة ١٩٦٥) دعوة الطريقي، وطلب الى المؤتمرين الحاضرين في مؤتمر البترول

(١) انظر دي . بي . اوكونيل في مجلة القانون الدولي ، المجلد الثاني ، ص ٨٥٥

العربي الذي عقد في القاهرة في سنة ١٩٦٥ عدم الالتفات الى رأيه ، ونعته بشتى النعوت [١] ... ومع هذا فقد ظل الخبير يؤكد بجرارة ان اتفاقيات النفط استمرار لاستعمار سحب جيوشه ، وان السبيل الوحيد تقوم على تأميم النفط وقيام الدول العربية بعمليات الانتاج والتصفية والتصدير [٢] .

ويعجبني هذا الرأي والحكم الاقتصادي الموضوعي الدقيق الذي أبداه في دراسته الأخيرة حين كتب : « اشد اعدائنا ضراوة هم اكثرهم استفادة من مواردنا الطبيعية (النفط) وهم اكثر من يتضرر اذا ماقاطعناهم مقاطعة اقتصادية محكمة [٣] .. » اما المخطط الذي يضعه فيتألف من [٤] :

(١) المقاطعة الاقتصادية وقطع البترول عن اوربا الغربية التي تستورد ٥٧٠٠٠٠٠ برميل يومياً ، ولن تستطيع سد احتياجاتها اليومية الا بنسبة ٣٤٪ من المجموع من مصادر نفطية اخرى .

(٢) تأميم اسهم الشركات التابعة الى الدول التي ساندت اسرائيل وعدوانها على البلاد العربية ، اذ تبلغ حصة الشركات الاميركية والبريطانية ٨٦٫٥ ٪ من مجموع الامتيازات النفطية في منطقة الخليج العربي ، وبلغت ارباحها في سنة ١٩٦٦ مبلغاً قدره ٢١٣٨ مليون دولار . اما التعويض على الشركات ، فيكون بالنفط الخام الذي يهمها اكثر من الرصيد النقدي ، وهذا مايدفعها الى التعاون مع الدول العربية ، كما يقول .

---

(١) ابراهيم علاوي ، مصدر سابق ، ص ١٥٢

(٢) الطريقي ، في مجلة دراسات عربية (أيار ١٩٦٥).

(٣) في كتابه : البترول العربي سلاح في المعركة .

(٤) عين المصدر ، ص ٣٨ - ٥٦

(٣) تأميم جزئي لجميع ممتلكات ومنشآت الشركات التابعة للبلاد المعادية لنا ، على ان يكون مصحوباً بتحديد كميات الانتاج . وتستطيع ان تقوم بذلك بلدان عربية قادرة فنياً وسياسياً على التأميم ، كالعراق وسورية والجزائر والجمهورية العربية المتحدة .. كما ان البلاد العربية الأخرى المنتجة للنفط تحدد الانتاج ايضاً ، وتضع ممتلكات الشركات تحت الحراسة ، بحيث تقطع خط الرجعة على الشركات النفطية من القيام بمقاطعة البلدان التي تم التأميم فيها ، أو تعويض النفط من مصادر البلدان العربية التي لم يتم التأميم فيها .

(٤) تعديل البنود المجحفة في الامتيازات، وذلك بأن تقوم البلدان المنتجة للنفط كافة، بعمل موحّد ، واصدار تشريع يلغي اعطاء الخصميات من الأسعار المعلنة (خصميات ٥و٦ ٪ من مجموع هذه الأسعار) ، ويرفع مستوى الاسعار المعلنة حالياً الى الوضع الذي كانت عليه سنة ١٩٦٠ .[١]

لننتقل في جولتنا الى ابراهيم علاوي ، الذي سبق ان اشرنا اليه ، لنرى رأيه في التأميم .. ان هذا الكاتب يقول : انه ليس من الصحيح ان ننشد تأميماً فورياً ، اذ أن هذه الخطوة لاتسعى اليها الآراء الوطنية . ويشرح السبب الجوهري ، بأنه يعود الى أن الاقتصاد العراقي قد بلغ من التشويه والاعتماد على عوائد النفط بحيث يحتاج الحكم الوطني الى بعض الوقت للتقليل من

---

(١) اذا اعيدت اسعار سنة ١٩٦٠ ، فالزيادة السنوية في الارباح من عوائد النفط ، كما يتوقعها ، كالآتي : السعودية ١٠٥٫٧ مليون دولار ، الكويت ٨٣٫٧ مليون دولار ، العراق ٦٦ مليوناً ، ليبيا ٦٨٫٤ مليوناً ، قطر ١٣٫١ مليوناً ، ابوظبي ١٦٫٣ مليوناً ، والمجموع الكلي ٣٥٣٫٢ مليون دولار ، ولن تؤثر الزيادة في هبوط ارباح الشركات .

حدّة هذا التشويه وتوفير الحد الأدنى من مستلزمات ادامة الحياة العامة وأجهزة الدولة [1].

اذن ماذا عن التأميم في المدى الطويل ؟ انه يجيب بأن عامل الزمن يجب أن يدخل في تقديرنا ، فقد يطول الى عقدين أو ثلاثة ، ومعناه الانتظار الطويل الذي قد يتنافى والمصلحة العامة ، فضلاً عن بقاء الاقتصاد القومي تحت رحمة شركات النفط وقبضة الاحتكار النفطي الدولي ... ويقترح الكاتب ، كما اقترح حسيب خير الدين ، ان نطور مواردنا الاقتصادية التي تأتي بمردودات سريعة نسبياً ، والتي تحدد من اعتمادنا على عوائد النفط ، لنستطيع تأميم النفط العراقي في أول فرصة مواتية (٢) .

ماهي امكانيات تأميم النفط في العراق ؟

لقد سقت نماذج من آراء بعض الكتاب في قضية الحوار حول تأميم النفط ، والنماذج ليست بكاملة ، ومعذرة لمن لم اذكر اسماءهم وآراءهم .. المهم هو أن نستعرض مداوس فكرية في دنيا الاقتصاد تثور آراؤها بين آونة واخرى كقصف الرعود ، وتتهافت احياناً فتصبح كهمسة عاشقة في اذن الحبيب .. ماالذي

---

(١) انظر دراسته : البترول العراقي والتحرر الوطني (بيروت ١٩٦٧) ، ص ١٥٤ .

(٢) المقصود هنا طبعاً استغلال موارد جديدة كالكبريت (كما فعل العراق قبل شهر) والفوسفات ، وتطوير صناعات تعتمد على الانتاج الزراعي كالتمور والسكر والتبغ والفواكه ، والحيواني كاللحوم والثروة السمكية ، وتطوير الزراعة ، وإيجاد صناعة نفطية وطنية مستقلة (كما فعلنا بتعاقدنا مع فرنسة والاتحاد السوفييتي) وصناعات كيماوية .. وعيب مخطط كهذا انـــه لايتم ، كما يأمل الكاتبان ، في عقدين او اكثر .. انه يحتاج الى اصلاح جذري في كيان العراق .

نخلص اليه ؟ نستطيع ان نخلص الى القول بأن هناك شبه اجماع على أن تأميم النفط في العراق ضرورة وطنية وسياسية وعملية واقتصادية ، وانه ، دونما ريب ، لآت في المستقبل القريب أو البعيد .

سؤال يثب في ذهني وذهنك : ماهي امكانيات التأميم الناجح ، اذ لسنا راغبين في احداث زوبعة في فنجان ، وهل تتوفر في العراق ؟

هنا يجب أن ادلي بدلوي كواحد من اقتصاديي العراق ... انا ، بكل صراحة وموضوعية ، لا اذهب مذهب المتحمسين القائلين بعدم وجود عوائق ، كالإدارة والتنظيم والقضايا المتطلبة كشروط فنية وانتاجية وتسويقية في صناعة النفط .. ان الأمر اكبر وأخطر من أن ندخل في مجرد تجربة لدعاوة سياسية .. ان هذه العوائق قائمة وقد لمسنا امثالها عندما أممنا صناعات أقل تعقيداً ، كالقطاع الزراعي والصناعي والتجاري والمصرفي ..

التأميم بحد ذاته مبدأ معترف به دولياً ، وهذا أمر لايأتيه الشك .

ولكن هل مر القانون رقم ٨٠ دونما متاعب ؟ ثم لماذا تأخر في التطبيق ؟ ان تسويق النفط ، حتى باعتراف ابراهيم علاوي ، سيتعرض الى المتاعب .. واعتقد ان العراقيل التطبيقية في هذا السبيل ستكون اكثر ممــا نتحدث عنه نحن الاكاديميون .. ان الكارتيل النفطي الدولي قوة كبيرة .. ولكنها ليست الطود الذي لاينخر ، وفي هذا العزاء .

اختتم هذا الاستعراض بالقول : ان التأميم – رغم المتاعب السياسية والاقتصادية – امر لامناص منه ، وهو خطوة يجب ان تتم لأنها جزء من التطور الاقتصادي الذي يؤكــد حتمية التخلص من التبعية الاقتصادية واعتمادنا على قطاع اجنبي الملكية والانتاج والإدارة والتسويق ..

كلمة تحذير مناسبة : مع ان التأميم بشكل هدفاً وطنياً ، وركناً قوياً من أركان الايديولوجية الاشتراكية التي نؤمن بها ، ولكني ، رغم ايماني بالنظام الاشتراكي كطريقة حياة وعمل ، لا أدعو الى التأميم الفوري .. انني لا أؤمن بأن التأميم عملية انتحارية ،بل العكس هو الصحيح ، لأن بقاء نفطنا بأيد اجنبية هو انتحار وموت بطيء بحد ذاته ، فقد لمسنا اقتصادياتنا منذ العشرينيات حتى الستينيات، وكيف اصيبت بالشلل وعدم التطوير، ولم تخرج في الغالب عن مرحلة الصناعات الاستخراجية التي ظلت جزءاً من الدولاب المتحرك المسمّى بالتبعية الاقتصادية .. وحتى في أطُر الصناعة الاستخراجية ، فإن نسبة زيادة الانتاج ، بالمقارنة مع المجالات الأخرى ، مازالت ضئيلة ... ومعنى هذا ضآلة ما يعود علينا من عوائد ...

لعل في دنيا الحلول السريعة ، تطوير صناعة نفطية وطنية مستقلة عن طريق الاستثمار المباشر ، وعقد مقاولات جديدة مع شركات نفطية عالميـــة ، لنتمرس في هذه الصناعة ونهيىء الكادر الفني والهندسي والإداري المطلوب .. وبعد هذا فتأميم الشركات الأجنبية هو الخطوة التالية ..

وباسم الشعب وعراقنا الأبي انا لفاعلون .

جغرافية الجهل

د. عبد الرحمن حميدة

لايمكن أن يحاط بموضوع الأمية ، كعرض من أعراض التخلف ، أو إيفاء بحثها ما يستحق من اهتمام واستقصاء ، دون التصدي لها على صعيد يتجاوز النطاق الاقليمي . فالأمية مشكلة تمس كل العالم الثالث الذي ننتسب اليه . ومشكلة الأمية هي ، بنفس الوقت ، مشكلة الجهل ، فهما صنوان . فحينما وجدت استشرى هذا واستفحل ، لذا لاغرابة اذا اعلنت الأمم الراغبة في التخلص من انحلال التخلف الحرب العوان على اقانيم التأخر الثلاثة التي تتصدرها الأمية ويواكبها الفقر والمرض .

لهذا كان من الضروري معالجة هذه المشكلة على مستوى العالم ، وتمثيل ذلك بالمصورات والخطوط البيانية

أو بالاشكال التعبيرية ، كي نستطيع التوصل الى دراسة مقارنة ، ولكي نتعرف على الأمم التي انتصرت على الأمية فدحرتها ، أو كادت تستأصل شأفتها ، وعلى الشعوب الأخرى التي لازالت تحاول جاهدة التملص من قيودها آملة أن تساير الركب الحضاري الذي تأخرت عن اللحاق به لأسباب عديدة متضافرة .

ولعل الأمية هي المسؤولة الأولى التي يمكن أن يشار اليها باصبع الاتهام، رغم بعض الاستثناءات ، لأن نسبة الامية بين جنود شارل العاشر الذين هاجموا الجزائر عام ١٨٣٠ كانت لاتقل عن نسبتها بين المدافعين الجزائريين .

وفي العالم حالياً قرابة ٨٠٠ مليون أمي بين ١٥ و ٥٠ عاماً . أما اذا أضفنا اليهم الذين هم في سن الدراسة أي من ٦ حتى ١٥ سنة ، فسيرتفع الرقم لأكثر من ذلك بكثير . وتبلغ النسبة التقريبية لسكان العالم الذين هم بين ١٦ و ٤٥ سنة قرابة ٤٠٪ من سكان العالم ، أو ١٧٠٠ مليون نصفهم اميون وذلك حسب تقديرات عام ١٩٦٤ ، منهم حوالي ٣٠٠ مليون في آسيا ؛ باستثناء الصين الشعبية وآسيا السوفياتية .

توزع الامية في العالم :

في أوروبا

الدولة	النسبة المئوية للأميين (أكثر من ١٥ سنة)	سنة الاحصاء
انكلترا	٢	١٩٦٨
فرنسا	٣	١٩٦٨
هنغاريا	٣٫١	١٩٦٤
بولونيا	٤٫٧	١٩٦٤

الدولة	النسبة المئوية للأميين (أكثر من ١٥ سنة)	سنة الاحصاء
الاتحاد السوفيتي	٢٫٥	١٩٦٣
ايطاليا	٧	١٩٦٨
رومانيا	١١٫٤	١٩٦٤
أسبانيا	١٣٫٣	١٩٦٤
بلغاريا	١٤٫٧	١٩٦٠
اليونان	١٨	١٩٦٨
يوغوسلافيا	١٩٫٧	١٩٦٤
البانيا	٢٨٫٥	١٩٦٤
قبرص	٢٤٫١	١٩٦٠
البرتغال	٤٤	١٩٦٦

في امريكا

الولايات المتحدة	٢٫٥	١٩٥٦
الارجنتين	٨٫٦	١٩٦٤
البرازيل	٥٠	١٩٦٦
فنزويلا	٣٤٫٢	١٩٦٤
الشيلي	١٦٫٢	١٩٦٤
المكسيك	٣٤٫٦	١٩٦٤
البيرو	٣٩٫٤	١٩٦٤
بوليفيا	٦٥	١٩٦٤

الدولة	النسبة المئوية للأميين (اكثر من ١٥ سنة)	سنة الاحصاء
في آسيا		
الهند	٧٠	١٩٦٧
ايران	٨٥	١٩٦٤
العراق	٨٢،٧	١٩٦٤
الاردن	٦٧،٦	١٩٦٤
باكستان	٨١،٢	١٩٦٤
سورية	٦٤،٦	١٩٦٤
تركيا	٦١،٩	١٩٦٤
افغانستان	٩٥	١٩٦٤
اليمن	٩٦	١٩٦٣
الصين الشعبية	٥٠	١٩٦٤
في افريقيا		
مصر	٧٣،٧	١٩٦٤
المملكة المغربية	٨٦،٢	١٩٦٤
السودان	٩٥،٦	١٩٦٤
الجزائر	٨٠	١٩٦٤
انغولا	٩٥	١٩٦٤
كونغو (كنشاسا)	٦٠	١٩٦٤
موزمبيق	٩٥	١٩٦٧

ولكن هذه الأرقام الجافة لاتعطينا فكرة دقيقة عن توزع الأمية بين أبناء الريف وبين أبناء المدن، أو بين العروق المختلفة في الدولة الواحدة، أو بين الذكور والاناث . ففي الريف تكون نسبة الأميين اكثر ارتفاعاً منها بين أبناء المدن . وتكون هذه القاعدة قابلة للتطبيق في كل أقطار العالم قاطبـــة . ففي الولايات المتحدة تصل نسبة الاميين في الريف الى ٥بالمئة مقابل ١بالمئة، بالمدن فقط. ويكون التفاوت صارخاً كلما أمعن القطر في التخلف ، اذ نجد أن الأمية بالبرازيل لاتتجاوز ٣٢٪ فقط بين أهل المدن ، بينما تقفز الى ٦٧٪ بين أبناء الريف .

أما من وجهة النظر العرقية فنجد التمييز بارزاً بين البيض والزنوج في الدول التي تسلك سياسة التميز العنصري ، وهكذا ترتفع نسبة الأمية بين زنوج اتحاد جنوب افريقيا الى ٧٢٪ مقابل ٢٪ فقط بين البيض ، بينما نجد هذا التباين أخف وطأة في الولايات المتحدة الاميركية حيث تكون نسبة الامية بين الزنوج ١٠٪ في حين لاتزيد عن ١،٨٪ بين البيض .

ويبين الجدول الآتي المستقى من احصاء هيئة الامم المتحدة لعام ١٩٦٤ اختلاف توزع الأمية بين الذكور وبين الاناث . ونلاحظ بسهولة أن الفروق تخف كلما كانت الدولة متقدمة والعكس بالعكس ، ولكن القاعدة العامة هي في تفوق نسبة الأمية بين الاناث حتى ليكاد يبلغ الضعف أحياناً كما في جمهورية البيرو وبولونيا أو ثلاثة امثال :

القطر	النسبة المئوية للأمية بين البالغين	النسبة المئوية للأمية بين البالغات
هنغاريا	٢،٥	٣،٦
بولونيا	٣	٦،٢
رومانيا	٦،١	١٦،٣

القطر	النسبة المئوية للأمية بين البالغين	النسبة المئوية للأمية بين البالغات
الأرجنتين	٧٫٥	٩٫٦
اسبانيا	٢٫٤	٣٫٦ (١٩٦٨)
بلغاريا	٧٫٣	٢١٫٩
اسرائيل	٩٫٥	٢٢٫٣
يوغوسلافيا	٩٫٩	٢٨٫٨
اليونان	٨٫٢	٣٠
الشيلي	١٤٫٦	١٧٫٧
قبرص	١١٫٨	٣٥٫٦
البانيا	٢٠٫١	٣٦٫٩
فنزويلا	٣٠٫٢	٣٨٫٣
المكسيك	٢٩٫٨	٣٩٫٣
البرتغال	٣٠٫٦	٤٤٫٦
البيرو	٢٥٫٦	٥٢٫٤
تركيا	٤٥٫٢	٧٨٫٨
سورية	٤٦٫٥	٨٣٫٢
الاردن	٣٩٫٩	٨٤٫٨
مصر	٥٩٫٥	٨٧٫٦
الهند	٦٥٫٦	٨٧٫١
الباكستان	٧١٫٧	٩٢٫٦

القطر	النسبة المئوية للأمية بين البالغين	النسبة المئوية للأمية بين البالغات
العراق	٧٣و١	٩٢٫٤
المغرب	٧٨٫١	٩٤
ايران	٨٠و٢	٩٤٫٥
السودان	٩٢٫٦	٩٨٫٥

وقال السيد رينيه ماهو ، مدير اليونسكو ، بتاريخ ١٤ / ١٢ / ١٩٦٣ ان بين ٢٠٦ ملايين ولد في سن الدراسة في ٨٥ دولة افريقية وآسيوية وامريكية لاتينية يداوم ١١٠ ملايين فقط على مقاعد الدراسة .

نماذج محددة :

آ — في تركيا : نشرت جريدة لون في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ ايلول ١٩٦٨ ان أكثر من نصف سكان تركيا أميون وترتفع هذه النسبة في الريف الى ٩٠ بالمئة . وهناك عدد كبير في سن التلمذة لا يستطيعون الانتساب للمدارس لعدم توفر الامكنة الكافية لهم . وبما أن بناء المدارس الجديدة وتكوين المعلمين لا يساير سرعة تكاثر السكان التي تبلغ ٣ بالمئة سنوياً فان الوضع يسير من سيء الى أسوأ . ويقدر في الوقت الحاضر ان بين كل ١٠ تلاميذ انهوا تحصيلهم الابتدائي لا يتابع الدراسة الثانوية أكثر من ثلاثة .

ب — في البيرو : كتبت مجلة الأزمنة الحديثة السوفياتية في عام ١٩٦٥ مقالاً بقلم فلاديمير تيخمينيف ، من معهد امريكا اللاتينية التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتي ، الذي حصل على منحة من مؤسسة اليونيسكو لتقديم اطروحة موضوعها « مكافحة الأمية في البيرو » يقول فيه : نشرت جريدة « الكومرسيو »

مقالاً أشارت فيه الى ان ٥ بالمئة من سكان البيرو فقط يجيدون القراءة والكتابة، وان ٤٣ ٪ نسوا المبادىء الاولية للقراءة والكتابة ، في حين ان ٥٢ بالمئة اميون تماماً . ويبدو لي ان من العسير التعليق على صحة هـــذه الأرقام ودقتها اذ تجب مقارنتها باحصائيات اليونيسكو ومع تقارير عدة مؤسسات احصائية . غير انها تعكس الحالة الواقعة الى حد معقول .

حـ – في الهند : كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة في الهند عام ١٩٥١ اقل من ١٦ ٪ ، وفي ١٩٦٧ ارتفعت هذه النسبة الى ٣٠ بالمئة . وارتفع عدد الطلاب في المدارس من ٣٣ مليون في العام الدراسي ١٩٥٠ / ١٩٥١ الى ٧٠ مليون في ١٩٦٦ . وفي عام ١٩٦٧ كان ٧٨٫٥ بالمئة من الذين هم في سن الدراسة يقصدون مدارسهم ويشير البرنامج الخمسي الأخير الى ان هـذا الرقم سيرتفع الى ٩٢ ٪ عام ١٩٧٠ . وعلى كل حال كان ٧٥ ٪ من الاولاد الذين هم في سن الدراسة يتابعون تحصيلهم في سنة ١٩٦٦ مقابل ٤٠ ٪ فقط سنة ١٩٥٠ .

د – فنزويلا : ونشرت جريدة لموند في عددها الصادر في ١٩٦٨/١١/٨ مقالاً عن مشكلة الأمية في فنزويلا وأثرها على الانتخابات بالبلاد التي جرت بتاريخ الاول من شهر كانون الاول ١٩٦٨ . فقد كانت الأمية مـادة استغلتها احزاب المعارضة رغم كل المساعي التي بذلتها الحكومة في سبيل مكافحة الأمية ، والواقع هو ان ربع الناخبين اميون . فبين الناخبين الذين بلغ عددهم ٤٠٩١٠٢٧ ، او ٩٦٫٢ ٪ من السكان الذين تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة ، كان فيهم ١٢٠٣٩١٨ أمياً ولكن هناك مناطق تستفحل الامية فيها أكثر من سواها كحوض الامـازون ، حيث كان نصف الناخبين ، أي ٤٠٠٠ من اصل ٨٠٠٠ يجهلون القراءة والكتابة . وحتى في المحافظة الاتحادية التي تضم العاصمة كاراكاس ، والتي تعتبر أكثر تقدماً

من سواها ، كان فيها ٥٠٠٠٠ أمي بين مجموع قدره ٦٩٣٦٨٤ ناخباً .

واستناداً الى الأرقام الرسمية المتعلقة بالاحصاء الانتخابي ، فقد لوحظ في ولايتي زوليا ولارا ، حيث بذلت جهود كبيرة لتعليم البالغين ان عدد الأميين في الاولى يبلغ ١١٨٠٠٠ أمياً من مجموع قدره ٤٨٢٩٢٤ ، وفي الثانية ١٠٢٣٧٨ أمياً من أصل ٢٦٧٥١٠ ناخباً . ولا يكون الوضع افضل بكثير في ولاية نويفا اسبارطة التي تضم ١٧٢٨٢ أمياً بين ٥١٧٩٦ بالغا . ولكن مما يلفت النظر هو وضع ولاية بورتوغيزا التي كان من المفروض أن تكون بحالة افضل من سواها بسبب التوسع الاقتصادي العظيم الذي حدث فيها مؤخراً ، اذ كان فيها ٥٦٠٠٠ أمياً من أصل ١١٦٦٩٠ ناخباً أو ٥٠ بالمئة .

وهذه الارقام قد تناقض كلياً ما نشرته وزارة التربيـــة الفنزويلية عن « نجاحاتها الرائعة » في مكافحة الأمية . فقد ذكرت انها استطاعت بين عام ١٩٥٨ و ١٩٦٨ ان تخفض نسبة الأميين من ٣١٫٦ ٪ الى ٩٫٣ ٪ .

مكافحة الأمية :

يقول المثل الصيني «اذا كنت تضع مخططاً لسنة فازرع أرزاً ، واذا كان مخططك لعشر سنوات فازرع شجراً ، أما اذا كان يمتد لقرن فعلّم الناس » .

ولقد أقر شعبنا،كما أقرت شعوب اخرى قبلنا،الزامية التعليم الابتدائي. وانه لقيد ، محدّ بشدة من حرية المواطنين ، اذ سلبتهم الدولة بذلك أكثر مظاهر حريتهم بدائية ، وكأن الدولة تقول لمواطنيها ان لا حرية لجاهل. ولدى ارسطو الذي ظهر قبل اربعة عشر قرناً جواب يتعلق بحل هـذه المعضلة العضال بقوله : كل مجموعة تعد مواطنيهـا لأسباب الاشتراك في الحكم ، وتوزيع مناصب الدولة

بحسب الاستحقاق ، ولا تتوفر لدى هؤلاء المواطنين اسباب معرفة بعضهم بعضاً، ومعرفة الحقائق الوطنية حولهم، فان كل أحكامهم التي يصدرونها ضالة ومضلة.

ويذهب بعض الفلاسفة الى ان الجاهل يجب أن يحرم من التمتع بحرية السياسة فيحال بينه وبين صناديق الاقتراع كالمجانين والمجرمين والاطفال.

ومن هذا نستشف الاسباب العميقة لفشل الديموقراطية البورجوازية التي اتبعتها معظم دول العالم الثالث بعد تحررها من الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فقد تحولت كل عملية انتخابية الى مهزلة لبيع الضمائر ، والتزوير ، بسبب جهل الناخبين .

وقد شعر العالم كله بضرورة القضاء على الأمية ، فاعتبر يوم الثامن من ايلول من كل عام ، يوم محو الأمية ، واصدرت معظم الدول بناء على توصية من هيئة اليونسكو مجموعات من الطوابع تخليداً لهذا اليوم .

ولقد صدر عن المجلس العام لهيئة الأمم المتحدة في أواخر عام ١٩٦٣ قرار ناشد أعضاء الهيئة القيام بحملة عالمية لدعم الجهود الوطنية في الكفاح ضد الأمية . وقال الدكتور رينيه ماهو مدير اليونسكو في هذه المناسبة: ان الاشتراك في تحضير هذه الحملة يعني أننا نهيء لأوسع عمل عرفه الذكاء البشري .

وقال ان عدداً من البالغين الذين تزيد أعمارهم عن ١٥ سنة ، يبلغ تعداده ٥٠٠ مليون شخص ، يجهلون القراءة والكتابة، وكلهم يحملون جنسيات الدول الأعضاء في مؤسسة اليونسكو .

وإذا كنا قد أشرنا آنفاً الى أن عدد الأميين بالعالم يقارب ٧٠٠ مليون حسب تقديرات ١٩٥٠، فان هذا العدد يزداد بالفعل سنويا بحوالي ٥و مليون، أي أن عدد الأميين في عام ١٩٦٩ يقارب ١١٧٠ مليون ، لأن تزايد عدد المدارس

والمعلمين في كثير من الأقطار لا يستطيع ان يوازي الحاجات التي تستدعيها الثورة الديموغرافية .

وقد قامت منظمات دولية كاليونسكو ، وهيئة الأمم المتحدة الخ ..منذ أكثر من عشرة اعوام بتنظيم مؤتمرات عديدة اشترك فيها خبراء كبار، وصوتت على عشرات من التوصيات،ونشرت عشرات الكيلو غرامات من التقارير المتعلقة بهذا الموضوع . كما اجتمعت لجنة جديدة مؤلفة من ١٨ خبيراً في باريس بين الأول والعاشر من نيسان ١٩٦٤ تحت اشراف اليونسكو ، وقد اعطت دراسات اللجنة ، على الصعيد النظري طبعاً ، توضيحات مفيدة وقدمت توصيات اكثر دقة .

وهؤلاء الخبراء الذين اجتمعوا بصفتهم الشخصية ، مما اعطاهم المزيد من حرية التعبير ، قد أجمعوا على التنديد بمشروع « الحملة العالمية على الأمية » المتخذ في شهر كانون الأول من عام ١٩٦١ ضمن اطار الهيئة العامة للأمم المتحدة . فقد كان هذا المشروع يرمي لتعليم ثلثي الأميين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٥٠ سنة (أي ٥٠٠ مليون) في خلال عشرة أعوام ، وهم يعيشون في أقطار منتسبة لمنظمة اليونسكو ، باستثناء الصين الشعبية التي ليست عضواً في هذه الهيئة الدولية .

وقد قدرت النفقات بحوالي ملياري دولار تدفع الاقطار المتقدمة ربعها . فمكافحة الأمية ليست غاية في حد ذاتها ، كما يقول هؤلاء الخبراء ، بل يجب أن تكون أكثر التحاماً من الماضي بتربية البالغين بصورة مستمرة ، وخاصة بتكوينهم المهني والتقني ، أي وجوب ربط الأمية بالناحية الانتاجية وبالاقتصاد ، وان تكون برامج محو الأمية معدة إعداداً مدروساً ومبنية على خطة طويلة الأجل .

وقد أشار مندوبو الجزائر والاتحاد السوفيتي والسنغال والهند ، مؤكدين أن « تبني طريقة اصطفائية يمكن ان تكون أكثر نجاعة وعقلانية » . ونظراً الى شدة الحذر في التعبير المعهود في معظم المنظمات الدولية ، فقد اتصف هـذا القرار بجرأة غير معهودة ، أي يجب التخلص من الفكرة القائلة بلزوم القيام بتعليم جماعي ، والذي ثبت فشله في أكثر الأقطار ، والاقتصار على تعليم سكان قرية أو منطقة برمتها ، بل يجب الاهتمام أولاً بالاشخاص الذين يشعرون بشدة رغبتهم في تعلم القراءة والكتابة ، كأعضاء جمعية تعاونية زراعية ، أو عمال مصنع الخ . ولن يكون تعلم القراءة والكتابة ، بالنسبة لهؤلاء غاية بحد ذاتـه ، أي كتدريب يتم صريعاً ثم ينسى بسرعة ايضاً لعدم استعماله وتطبيقه ، بل سيكون خطوة أولى نحو تعليم مستمر . وهكذا سيستطيع العامل بعدئذ ان يتابع دروساً في التكوين المهني كما سيتمكن الفلاح من قراءة كتب الارشاد الزراعي التي تقدمها له التعاونية .

ومن جهة أخرى فقد ارتكبت بالماضي أخطاء تربوية كثيرة كتطبيق الطرائق المتبعة في تعليم الأطفال على البالغين . وقد تم التنديد بذلك باجماع آراء الخبراء . وقد أشار مندوب السنغال الى « ان من الممكن تعليم الفلاحين القراءة ابتداء من طريقة استعمال الاسمدة» أي يجب اللجوء لتطوير تربية مركز الاهتمام» وقد تبنت الجزائر ، التي كانت بالبدء معجبة كثيراً بالتجارب الكوبية في التعليم الكلي إذ لم تكن نسبة الأميين في كوبا تتجاوز ٢٠٪ فضلاً عن وجود كثير من المعلمين العاطلين عن العمل، اقول تبنت الجزائر هذه الطريقة الاصطفائية الأكثر تلاؤماً مع أوضاعها الخاصة .

وهكذا وجهت الجزائر اهتمامها في مكافحة الأمية الى أعضاء لجان التسيير

الذاتي ، والى العمال ، والنقابيين الخ . . وتنشر وزارة الارشاد منذ مطلع عام ١٩٦٤ جريدة نصف شهرية تعطي ، حسب كل مستوى من المستويات ، البرامج التي يجب اتباعها ، وساعات نشرات الاذاعة . ويبدء القسم الصادر منها بالفرنسية أكثر من القسم العربي الذي يقتصر على دروس في العلوم . ويستطيع الراغبون أن يختاروا بحرية بين اللغتين . هذا ويبدو القسم النحوي الفرنسي ، لأعين الناقدين ، كثير التعقيد بلاطائل ، وأقرب للموسوعة منه للكتب المناسبة للمرحلة الابتدائية .

والواقع أن هذه المشكلة تبدو كثيرة التعقيد في الجزائر ، اذ لا يقتصر الأمر على مكافحة الأمية فحسب ، بل تعليم لغة ، أي تعليم اللغة العربية الفصحى والفرنسية .

أما في السنغال فان معلمي مدارس مكافحة الأمية يتكلمون لغة الولوف oulof في الشرح ويعلمون الفرنسية قراءة . ويتفق خبراء اليونسكو على ان هذا التعليم لا يمكن أن يتم إلا على أيدي متطوعين . ولكن نظراً لقلة موارد الاقطار التي تستفحل بها الأمية ، ونظراً لارتفاع المبالغ التي تنفقها في تعليم الصغار ، فهي لا تستطيع تكوين جهاز تعليمي آخر يعمل كل الوقت مع البالغين . ولكن الحماس من اجل هذا النوع من العمل اقل مما يتصوره البعض ، ويرى هؤلاء الخبراء أن على الحكومات المحلية ان تخلق وتثير هذا النوع من الحماس .

اثارة الحماس بين الحكومات:

والوجه الثاني من معركة مكافحة الأمية ، كما يراه مدير اليونسكو (رينيه ماهو) يمكن أن يكون في العون المتبادل : « لقد قلت لحكومات الاقطار العربية الا تنتظر عون الآخرين . فلديكم مورد طبيعي ، هو البترول ، الذي لا تملكه

معظم أقطار آسيا وأفريقيا . وانه لمثل رائع ان تتقدم مجموعة من الأقطار السائرة في طريق النمو ، فتخصص قسماً من مواردها الناتجة عن استغلال النفط ، لمكافحة الأمية . وقد كان لاقتراحي هذا قبول حسن » .

كما طلب ماهو ايضاً عون الأقطار الغنية . ويقدر الاخصائيون المبلغ اللازم لذلك بحوالي ١١ مليون دولار سنوياً ، وهو رقم متواضع بحد ذاته ، والغرض من ذلك قبل كل شيء هو تدريب المعلمين المتطوعين والمساهمة في تأمين عون طيب لستة أو ثمانية أقطار معينة تعتبر حقل تجارب اصطفائية بالنسبة للأقطار الاخرى.

ويضيف رينيه ماهو « ان مبلغ ١١ مليون دولار بالسنة يعتبر مبلغاً بسيطاً بالمقارنة مع ما انفقته هيئة الأمم المتحدة على الكونغو في فترة ١٩٦٢–٦٣ وهو عشرة ملايين دولار بالشهر ، وبالمقارنة مع الخسائر الناتجة عن زلزال آلاسكا في عام ١٩٦٢ وهو ٥٠٠ مليون دولار . أي أن ما نطلب من مال لا يشكل أكثر من مبلغ زهيد ، ويكفي ان تعلن دولة عظمى عن موافقتها حتى تتبعها الدول الاخرى » .

وأخيراً تبنت اليونسكو خطة جديدة في محو الأمية بين البالغين على أساس ربط الحملة الجديدة بالانتاج وبالتدريب المهني ، اذ اشتمل برنامج الدراسة على تدريب مهني يهيء للدارسين فرصة العمل المنتج المثمر بعد انتهائهم من الدروس ، ويشعرهم بأهمية هذا التعليم ودوره في زيادة دخلهم وانتاجهم .

وبدأ تنفيذ الخطة في ثمانية بلاد هي باكستان وإيران والجزائر وتانزانيا ومالي وغينيا وفنزويلا واكوادور . ورصد لها مبلغ ٣٠ مليون دولار على خمسة أعوام تدفع الأمم المتحدة ٤٠ ٪ ، بينما تتكفل هذه الدول المذكورة بالباقي .

ويتوقع المسؤلون في اليونسكو ان يتم تعليم ١٫٥ مليون شخص في هذه

الفترة . ولن يقاس النجاح بعدد هؤلاء الاشخاص بالمقارنة مع عدد الاميين بالعالم الذي يتجاوز المليار، ولكن بما يستقدمونه من زيادة في الانتاج عن طريق استغلال معلوماتهم التي اكتسبوها من دراستهم .

ويبدو ان هذه الطريقة الاصطفائية قد اتبعت في بعض الأقطار العربية كما هو الحال في الجمهورية العربية السورية حيث يقوم الاتحاد النسائي ونقابات العمال بجهود مشكورة في هذا المجال ، بينما لا تزال بعض الدول العربية الأخرى ترمي الى مكافحة الأمية بشكل جماعي كما هو الحال في السعودية التي كان لديها ٦٠٠ مدرسة تعمل في أواخر عام ١٩٦٨ في مكافحة الأمية

التحليل النفسي وعلم الاجتماع (١)

للعالم الألماني

د. كونراد بواس

ترجمة انطون شاهين

تسود وجهات نظر متباينة حول الصلات المتبادلة القائمة بين علم نفس الأعماق وعلم الاجتماع، العلم التجريبي لحياة المجتمع البشري.

قلة هم الباحثون الذين يتمسكون بالرأي القائل، إن كل علم يبحث في النفس يتحتم أن يكون مبنياً على أساس اجتماعي. ان المجتمع في عرفهم، من المعطيات الأوليـة. إنهم لا يستطيعون النظر الى الانسان، الا ككائن اجتماعي، يقضي حياته أبداً في ظل الحيـاة الاجتماعية، وليس في استطاعته العيش بعيداً عنها. على هـذا غدا كل بحث في علم النفس، حسب رأيهم، علماً يبحث في معاناة وسلوك الجماعات،

(١) Conrad van Emde Boas, Psychoanalyse und Soziologie . München 1965

وفي المعنى الحصري علماً نفسياً اجتماعياً . ومن البديهي أيضاً أن ينطبق هذا الرأي على علم نفس الأعماق بصورة عامة ، وعلى التحليل النفسي بصورة خاصة .

على النقيض مما تقدم ، يذهب عديد من علماء الاجتماع ، والجزء الأكبر من علماء النفس ، الى أن البحث في حياة الجماعة البشرية ينطلق من علم النفس الفردي ، وعلى الأخص من علم نفس الأعماق (Tiefenpsychologie) المتجه اتجاهاً ديناميكياً . ألا تتألف كل جماعة من الجماعات من الأفراد ؟ ألم يصنع الانسان تاريخه ويكوّن مجتمعه ؟

إن هذا التضاد الظاهري المائل في هذين الاتجاهين ناتج عن طرح خاطىء للمشكلة ؛ في الواقع ، إن كلا من هذين الرأيين يتضمن حقيقة جزئية ليس أكثر. إن التعديلات السريعة التي طرأت على هذه العلوم في السنين الأخيرة ، جعلتنا نمعن النظر في حالتها الواقعية ، وقادنا الأمر تدريجياً كي ندرك العلاقة الجدلية الخاصة الكامنة فيها : يحاول هذان العلمان ، كلٌ وفق طرقه الخاصة به ، وصف وتنسيق وتعليل وتعديل الواقعة نفسها ، ألا وهي : الانسان في ظل الجماعة الانسانية .

لذا يجب على هذين العلمين أن يكونا في المستقبل متلازمين ، كعلوم صديقة تتمتع بذات الأهمية ، يتداخلان ويتأثران ببعضها ويؤثران أبداً ، كل ذلك في سبيل تطور مثمر لها .

سننطلق في بحثنا هذا من حقيقة وضرورة هذه العلاقات المتبادلة ، محاولين وضع النقاط على الحروف ، مشيرين الى مضار سيادة مطلقة لأحدهما على الآخر ، وإلى خطر الوقوع في أمبريالية فكرية قد تقود الى صهر علم النفس في بوتقة علم الاجتماع أو بالأحرى الى صهر العلوم الاجتماعية في بوتقة علم النفس .

وسنظهرها فيه الكفاية ، وفي مواضيع مختلفة ، العلاقة الجدلية القائمة بين هذين العلمين، مشيرين أيضاً الى تأثير السوسيولوجيا على تطور التحليل النفسي.

التطور تحت تأثير فرويد :

إن علم النفس وعلم الاجتماع ، السيكولوجيا والسوسيولوجيا ، من العلوم الفتية. قد يتجاوز عمر علم النفس النصف قرن ، ولا يزيد عمر علم الاجتماع ، في شكله الحاضر ، عن ضعف هذه المدة .

لماذا لم يتم العمل منذ البدء في ظل اتفاق متبادل ؟ إن السبب يكمن في الجوهر الخاص للعلم على وجه العموم ، لدى نشوء هذه المباحث الجديدة . إن السيكولوجيا عُرفت منذ سنين عديدة : كعلم النفس ، ، أي كعلم يبحث في النفس وفي الروح ، وذلك على نقيض العلوم الطبيعية التي تبحث في العالم « المادي» معتمدة على التجربة . لقد كان علم النفس في ذلك الزمان ، علماً عقلياً ، يعتمد على التأملات والاستنباط والتقييم ، اكثر من اعتماده على الملاحظة الموضوعية والاختبارات . لهذا وقع هذا العلم منذ البدء فريسة مشاكل وهمية مستعصية ، كالعلاقة بين النفس والجسد ، بين العقل والمادة مثلاً . فاختلطت الحدود ، نوعاً ما ، بين علم النفس والفلسفة واللاهوت ، حتى اننا نجد ، في غضون القرن التاسع عشر فلاسفة ، مذهبين بصورة خاصة، يحددون معالم السيكوجيا العامة. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر فقط ، ازدهر علم النفس ازدهاراً سريعاً محاولاً ، حصر مهمته في عالم الخبرة ، كعلم نفس تجريبي . إن هذا العلم الحديث قد غرف حاجياته ومعلوماته من معين الاختبار ، وحاول انكار تحدره من العلوم العقلية الأم . ولم يطمح في أن يكون اكثر من علم يبحث في ظاهرات الشعور ، كما

يقول ليبز (Lipس) ، معتمداً على طرائق العلوم الطبيعية في التحليل والقياس . لكن ، بعد فترة من الزمن ، أضحى علم النفس التجريبي هذا ، مهدداً بالاستحالة الى ضرب من علم الوظائف الحسية (Sinnenphysiologie) ، أضحى علم نفس دون روح ، لأنه رفض الاعتراف بتلك العمليات العقلية التي ينكرها التفكير ، لأنه لا يجد ما يشير اليها ، من خلال حوادث فيزيولوجية في المخ ، ورفضه هذا كان بمثابة رد فعل أمام كل ميتافيزيقا — ويمكن القول خوفاً منها — . علاوة على ذلك فقـــد تماثلت بعض المفاهيم في هذا الاتجاه ، فاعتبر مثلاً « نفسي » و « شعوري » لفظات متماثلة .

إن مثل هذا الاتجاه في علم النفس ، لايستطيع أن يقدم شيئاً يذكر لعلم الاجتماع الفتي . كانت هناك مسائل أخرى ، في الواقع ، تشغل هذا العلم ، وترمي الى رؤية الانسان ككل ، كوحدة تختبر وتعمل بنشاط واستجابة في ظل الحياة الاجتماعية . ان التحليل الدقيق لعمليات الشعور المختلفة ، والتـــأمل الثاقب في علاقتها مع الحوادث الجارية في سحاءة المخ لا يأتي بمنفعة لعلم الاجتماع من وجهة النظر النفسية — الاجتماعية . كان بود علم الاجتماع ان يعلم ، كيف صار الانسان الى كنف الجماعة ، ومع الجماعة ايضاً حضارتها ومدنيتها وثقافتها ، على ما هو عليه وفكر كما يفكر ، وعمل كما يعمل . وقد ظل علماء النفس حينذاك مدينين بجواب على هذا السـؤال .

إن البحاثة الأول ، الذي كشف هذه الحالة السيئة ، كان وليام ماكدوغال (W . McDougall) . وقد حاول وضع نهاية لهذه الحالة غير المرضية عام ١٩٠٨

في مستهل كتابه «مدخل في علم النفس الاجتماعي»[1] واعترف بصراحة، ان الخطأ يقع على كاهل علماء النفس، لأنهم أهملوا جزءاً يقع ضمن نطاق اختصاصهم، وله أهمية كبرى في العلوم الاجتماعية[2].

سوف لا نتعرض في بحثنا للسؤال عن مدى نجاح محاولة **ماكدوغال** في وضع قاعدة مشتركة للعلوم الاجتماعية عامة في «علم النفس الغريزي». إن نظرية **ماكدوغال** سادت زمناً لابأس به دون منازع، لاسيما في البلدان الناطقة بالانكليزية. وانه لمن دواعي الغرابة حقاً، أن نجد، أن **فرويد** (S. Freud) قد أثر على علم النفس الاجتماعي المعاصر في البلاد الانكلوسكسية تأثيراً أعمق من **ماكدوغال**.

إن كتاب «المقدمة» **لماكدوغال** يُظهر جلياً، أن مؤلفه لم يتعرف قط، أو لم يتعرف بما فيه الكفاية، على المؤلفات الأولى التي بحثت في التحليل النفسي. لقد أقر هو بعدئذ بذلك، وأصلح من موقفه نوعاً ما، في كتابه «الموجز في علم النفس»[3]. إلا أن تلك المؤلفات الأولى كانت قد احتوت

---

(١) An Introduction to Social Psychologie. وليام ماكدوغال (١٨٧١ – ١٩٣٨) طبيب وعالم نفسي انكليزي، نشر كتبه، اول ماانشر، في انكلترا، ثم قدم الولايات المتحدة وعين استاذاً بجامعة هارفرد ثم بجامعة دوك. يذكر (١٤) دافعاً يصحب كل منها انفعال خاص في علم النفس الغريزي، كما سنرى، فغريزة القتل مثلاً انفعالها الغضب، ويدعو هذه الدوافع بالغرائز أحياناً. وقد شدد على قيمة الغرائز بالنسبة للسلوك والمعرفة. (المترجم)

(٢) لايقتصر الذنب على علماء النفس فقط. إن نقداً منهجياً لاذعاً لهذه الحالات نجده لدى هلكسن. راجع: H. Helksen. Der Begriff des Staates u. die Sozialpsychologie «Imago VIII. 1922, S. 97 f.»

(٣) « Outline of Psychology »

على جميع العناصر التي يحتاجها **ماكدوغال** لبناء علم النفس الاجتماعي العام ، الذي يجب أن يكون ، كما طالب هو بذاته ، أساساً لعلم الاجتماع ، — وكان ذلك قبل أن يظهر عمل **فرويد** الحضاري التاريخي « توتم وتابو »[1] الى الوجود بزمن طويل . وتشاء الصدف ، أن ينشر **فرويد** كتاباً ، يبيّن فيه أوضح مما بيّن في أعماله السابقة ، كيف أنه يعي العنصر الاجتماعي في الأسباب المرضية للعُصابيين وعياً تاماً . ويكتب **أبراهام** (K. Abraham) معلقاً على رأي **فرويد** في كتابه « الأخلاق الحضارية الجنسية والعصبية الحديثة »[2]:

---

(١) « Totem und Tabu » ، « **التوتم** » عبارة عن رمز (غالباً على شكل حيوان) يسكب الرجل البدائي له احترامه وخشوعه ، دونما سبب معقول ، ويظن البدائي أنه ينحدر منه ، وأنه يصد عنه النوائب والخطوب ، وقد تسمى العشيرة باسمه. أما « **التابو** » فهو ما لا يجوز لمسه ، ويتجنبه المرء إما بعامل الخشية أو بدافع الاحترام لأنه يحمل في ذاته قوة سحرية تدعى « **مانا** » حسب المعتقدات البولينزية . وقد يكون هذا الشيء شخصاً أو منطقة أو موضوعاً ، وأشار **فرويد** إلى أن « **التابو** » هو تأكيد لتصورات انفعالية ، اجتمع فيها ضدان (ambivalent) ، مثلاً تبقى حالة الخوف والشهوة معلقة تحت تأثير التابو . ويقول **جيلن** (Gehlen) : ان التابو ينظم موقفاً حرجاً ويقوم السلوك ، ويوجد بالاضافة الى الشعائر الدينية والعبادة والطقوس بذور الاستقرار ، التي بموجبها يحدد الشعور الاجتماعي وجهة نظره » وبالنسبة لعلم **النفس الاجتماعي الحضاري** يعني هذا المفهوم ، أن الأمور التابوية هي أمور فطرية معروفة (كعدم ثلم شعور الغير،وكالنهي عن الفسق بذوي القربى..) : ان التقاليد تضمنها والحق يؤكدها ، انها تجعل السلوك والعمل وأشكال العبادة والشعائر تنساب في قنوات محددة . وقد تستحيل اخيراً الى رموز ، ذات طابع معين مميز ، لا سيما طابع القسر والقهر ، يتقوقع مجتمع معين في كنفها ، او بالأحرى تقوقعه .

(المترجم)

(٢) Die Kulturelle Sexualmoral u. die Moderne Nervositat

« نجد عادة أن العوامل التي تسبب العصبية في وقتنا الحاضر ، تعود الى الضوضاء والصخب والسرعة اللاهثة ، التي تسود في مجتمعنا الحديث . إلا أن هذا التعليل لايكفي ، لأنه لايُعير الشحيحة الجنسية في بحثه عن الأسباب المرضية (Aitiologie) للعصابيين اهتمامـــاً كافياً . إن حضارتنا تنهض على ضغط وكتم الدوافع ، والأخلاق الحضارية تطالب الفرد الاجتماعي بتحديد نزعته الجنسية تحديداً مفرطاً ... إن الأخلاق الحضارية هي مصدر مرض لأشخاص عديدين . وفرويد يطرح المشكلـــة متسائلاً ، ألم يطرأ على المنفعة الحضارية من وجود الأخلاق ، من جراء هذه الأضرار النفسية ، عدم تكافؤ وعدم اتزان ، بين المنفعة وبين ذاك الضغط ؟ »[١].

في وسعنا اعتبار هذا المؤلف ، الذي تستخدم فيه تشخيصات التحليل النفسي استخداماً منسقاً لحل المشاكل الاجتماعية ، الأول من نوعه . وقد يُعد خاتمة المرحلة الأولى الفرويدية ، لأن فرويد قد استنتج من خبراته الطبية ، سالكاً منهجاً يكاد يكون نوروياً ، ونلاحظ ذلك في الشواهدين التاليين وغيرهما بوضوح :

« على المرء هنا ، أن يفطن الى العقبات ، ويحذر من تبديل جزء من الصلة الصميمية الماثلة في مؤسساتنا الثقافية برمتها ، دون الاكتراث بمجموع هذه الأجزاء »[٢].

« من المؤكد ، أنه ليس من مهام الطبيب ، تقديم إرشادات إصلاحية ، لكنني أرى أنه يمكنني معاضدة الضرورة الملحة لمثل هذا الاصلاح » .

إن مساهمة فرويد الجوهرية ، بالنسبة لعلم الاجتماع وعلم النفس

---

(١) Ref. von K. Abraham im « Jahrbuch » 1909, S. 527 - 30

(٢) مؤلفات فرويد بالألمانية ج ٧ ، ص ١٥٩

الاجتماعي ، تنحصر دون أدنى شك ، في هذه المرحلة الأولى ، في وضعه حداً « لعالم النفس العديم الروح » ، الذي عزل الانسان عن المجتمع ، وقوقعه في تجريد لا طائل تحته ، في مونادة بلا نوافذ[1] . ومنذ الكتابات الأولى الفرويدية ، كان الانسان وحدة حيوية ، يجب أن تدرس ككل يعمل فعالاً مستجيباً (aktiv - reaktiv) في خضم الأوضاع الثقافية والاجتماعية .

إن اكتشاف طابع الصراع في الحالات المرضية العصبية ، دعا **فرويد** كي يركز اهتمامه ، منذ البداية ، على التأثيرات الاجتماعية – النفسية المنبثقة عن الجماعة ، وخاصة عن العائلة ؛ إذ اتضح له ، أن أعراض الهستيريا تظهر ، حين يقبل المرء المبادىء الأخلاقية السائدة ، أي أخلاق جماعة من الجماعات ، قبولاً واعياً ، ويحاول ان يدفع عنه ذكريات حوادث قد تهدد مكانته الاجتماعية بالخطر ، إذا علمت تلك الجماعة بهذه الحوادث . وفي كتابه « الأمراض العصبية الدفاعية »[2] كان قد اثبت فرويد ، أن الحكم السلبي للمجتمع ، وإدانته لتصرفات أعضائه ، لا يحول فقط دون قيام الفرد **بأعمال** معينة ، بل يقود أيضاً الى جعل **المحتويات** الفردية المنطوية **في أعماق النفس** ، كالذكريات ، والرغبات ، والميول ، المصطبغة عادة بصبغة جنسية ، بفعل الآليات الدافعة[3] ، مشلولة الأثر ، لأن الشعور ، « لا يتحملها » ، وهكذا

---

(١) مونادة (Monade) لدى لايبنتز ، الفيلسوف الالماني ، تعني الجوهر الفرد ، فالكون حسب رأيه مؤلف من جواهر روحية بسيطة (مونادات) ، والنفس هي مونادة واعية ، لكن بلا نوافذ تشرف على العالم الخارجي ، معرفتها تنبع من ذاتها ، عن طريق الانسجام المسبق . (المترجم)

(٢) S . Freud A bwehrnevrose 1894

(٣) الآليات (mechanismen) هي ، حسب فرويد ، القوانين التي بموجبها =

تغدو هذه المحتويات ، تحت تأثير عملية الدفاع ، التي تؤدي الى كبتها وإزاحتها، غير مشعور بها .

وإذا ذكرنا،علاوة على ذلك،أنه في كتابه «ثلاث دراسات حول النظرية الجنسية »[1] قد فسر معنى العائلة وعقدة أوديب[2] ، ووصف عملية الكبت والتصعيد وتكوين الاستجابات ، هذه الدوافع القدرية في الحياة العقلية ، الهامة من الناحية الاجتماعية ، يتضح لنا أن كتابه هذا له قيمة مستمرة بالنسبة لعلم الاجتماع .

طبعاً لا يسعنا في هذه المقالة تعداد ووصف كل آلية تحليلية ، لها أهميتها النفسية الاجتماعية . إلا أنه يمكن تلخيص الاكتشاف الاساسي لعلم النفس التحليلي ، المتعلق بعلم النفس الاجتماعي، في الجمل التالية : يكمن الشيء الجوهري في ان سلوك الانسان ، ككائن اجتماعي ، تقيده الدوافع ، او بكلمة اخرى ، يقيده النزوع الى اشباع حاجاته الخاصة . إن علم التحليل النفسي كان قد أشار إلى أن الحاجة إلى الحب ، في جميع وجوهه الفردية أو الاجتماعية ، لها ذات الأهمية القصوى الأساسية ، كالحاجة الى الغـــذاء والدفء . إن التحليل

=تعمل الطاقات النفسية في اللاشعور، وبواسطتها قد يشبع الفرد دوافعه كالكبت والتصعيد وثبات الفكرة والارتداد والتسويغ . والآليات الدفاعية (Abwehrmechanizmen) تكوّن صنفاً شاملاً عظيم الأهمية من قواعد أو عادات توافقية ، وتنقسم الى دفاعات ذات طبيعة عدوانية نسبياً ، ودفاعات انسحابية تقهقرية . (المترجم)

(١) (Drei Abhandlungen Zur Sexualtheorie)

(٢) (ödipus - Komplex) ، نسبة الى أوديب في القصة الاغريقية « أوديب الملك » لسوفوكلس . أوديب قتل أباه وتزوج أمه دون علم منه ، فلما علم بذلك فقأ عينيه . وتنشأ هذه العقدة عن ارتباط ليبيدوي نحو الاصل، وتتميز بكره الأب والميل نحو الأم . (المترجم)

النفسي ، كان في طليعة العلوم التي بحثت ووصفت الأشكال المختلفة للحاجة إلى الحب ونموها وتطورها .

إن هذه الدوافع التي لاشكل لها لدى الولادة ، تأخذ إبّان نمو الطفل تحت كنف العائلة ، طابعاً نموذجياً ، يحدد شخصية الفرد .

وتتميز « الحاجات » الانسانية عن الدوافع الأصلية الأخرى ، لأن « البيئة الاجتماعية تبدلها و « تستخدمها » . ويتميز الانسان عن الحيوان ، لأن في داخله بواعث تؤثر فيه تأثيراً لاشعورياً ، وهذه البواعث ، هي عبارة عن ترسبات خلقية موجودة في هذه البيئة الاجتماعية : ألا وهي الوصايا والأوامر الصميمة ذاتية الحركة . وقد اطلق فرويد على هذه السمات الراسية في الأعماق ، وعلى هذه الضروب من رد الفعل ، اسم « الأنا — الأعلى » .

وإذا أضفنا إلى ماتقدم ، آليات الانتقال والاسقاط[1] والتقمص[2] ، نكون قد أتينا على تعداد الأمور التي ساهم فيها فرويد في مجـــال علم النفس الاجتماعي العام كاملة .

---

(١) (Projektion) وهي الآلية التي يصفها فرويد في مؤلفه « الدوافـــع ومصيرها » على النحو التالي: « ان الأنا يسلخ عن ذاته عنصراً ما، يصبه في العالم الخارجي، ومن ثم يسكب أحاسيسه ومشاعره فيه بصورة عدائية » (مؤلفـــات فرويد ج ١٠ ص ٢٥٨) .

(٢) (Identifizierung) وهو عبارة عن رغبة تجتـــاح الفرد بتقمص شخصية محبوب — من المحتمل أن يجتمع فيه ضدان — أو على أي حال من الأحوال ، التشبه به قدر المستطـــاع .

مؤلفات فرويد النفسية — الحضارية :

بعد هذه التأملات العامة ، يجدر بنا أن نوجه اهتمامنا شطر مؤلفات فرويد ، التي تتضمن بطريقة مباشرة ، آراء نفسية — اجتماعية ، ونفسية — حضارية .

طبعاً في البدء ، علينا ذكر كتاب الفكاهة (Witz) (١٩٠٥) ، حيث خصص **فرويد** فصلاً كاملاً للبحث في « الفكاهة كحادثة اجتماعية » وقد برهن على أن الفكاهة حادثة اجتماعية ، منطلقاً من قول **شكسبير** في (الحب الضائع) :

« في أذن السامع وحدها
يكمن تقدير المزاح
وليس في لسان ذلك ،
الذي يرويه ... »

فالشخص الذي يلقي فكاهة ما ، يحتاج الى شخص آخر يستوعب تلك الفكاهة . المتكلم لايضحك أبداً ، وهو يزيل ضروب الروادع ويفتح المنافذ لتفريغ الأشياء المكبوتة عن طريق الضحك .

أما المؤلف الثاني الاجتماعي ، فهو البحث الذي ذكر سابقاً « حول الاخلاق الحضارية والجنس » (١٩٠٨) . وفي عام (١٩١٢) ظهر كتاب « توتم وتابو » ، عمل **فرويد** التاريخي الحضاري الذائع الصيت ، فيه عترفوويد، منطلقاً من المعتقدات التابوية والنزعة التوتمية ، على العلاقات العميقة الكامنة في حياة البدائيين الدينية والاجتماعية ، كما حصل لعالم الاجتماع الفرنسي **دور كهايم**

Durkheim من قبله ، إلا أن **دور كهايم** ،كان قدا كتفى نوعاً ما ، باستنتاجات صوفية وهي أن الله والمجتمع يتماثلان ، وأن الله ليس سوى التعبير الصوري الرمزي للمجتمع . بينما حاول **فرويد** ، معتمداً على استيعابه التحليلي لأمراض العصاب ، لاسيما أمراض العصاب الناجمة عن القسر (Zwangsnevrosen) ، التغلغل إلى جذور الروابط النفسية للفرد ، سواء كانت هذه الروابط اجتماعية أم دينية . وقد عثر على تلك الجذور ، بأخذه اعتقاد البدائيين ، أن التوتم « هو السلف والأب الأول » بالنسبة اليهم ، حرفياً : إن التوتم كان في الواقع الأب الأول! وبالاستناد إلى فرضية **أتكنسون** (Atkinson) ونظرية داروين (Darwin) في الرهط ، وطد فرويد دعائم تركيب عظيم ، لكنه جريء ، لايزال موضع جدل عنيف في علم الاجتماع .

واذا غضضنا الطرف عن مدى ماتحتويه فرضية الرهط من حقيقة ، نلاحظ أن لهذا المؤلف أهمية كبرى بالنسبة لعلم مناهج البحث السوسيولوجي . إن **فرويد** بتفسيره الظاهرات الاجتماعية والدينية تفسيراً نفسياً - **فردياً** ، مبيناً أن الأصل **السيكولوجي** للدين والأخلاق يعود الى ردود فعل عاطفية ، إلى علاقة الأب بالابن والعكس ، وضع حداً لصوفية **اجتماعية زائفة** : لقد اثبت أن **دور كهايم** كان على حق عندما نادى بتماثل السلطة **الالهية** مع **السلطة الاجتماعية** ، إلا انه بهذا كشف الستار عن السبب العميق لهذا التماثل أو التقمص ، أي عن سلطة الأب ، ومهد السبيل لحل مسألة أخرى مهمة ، وهي مسألة « تكوين الجمهور » . وقد تعرض لهذا الموضوع في كتابه « سيكولوجيا الجماهير وتحليل بنية النفس » (١٩٢١)[١]

---

(١) (Massenpsychologie und Ich-analyse)

ان عالم الاجتماع الحقوقي المعروف هانس كلزن (Kelsen) قد بيّن منذ عام ١٩٢٢ أهمية هذا المؤلف في مجال علم الاجتماع[1]. ينطلق فرويد في تأملاته من ظاهرات التجمهر، كما وصفها سيغيل (Sighele) ولوبون (Le Bon)[2]. كان لوبون قد حدد مفهوم الجمهور (Foule, Masse) . فهي موجود مؤقت مؤلف من عناصر لامتجانسة ملتحمة لفترة من الزمن . السؤال الهام من وجهة نظر علم الاجتماع الآن : فيما يكمن جوهر هذا « الارتباط » والانضمام ؟

لاشك أن **لوبون** قد أعطى وصفاً رائعاً للتغيرات النفسية الفردية، المنبثقة عن واقع نشوء الجماهير، إلا أن تعليله تلك الظاهرات، كان أقل قناعة بكثير من ذلك الوصف .

وقد أولى كلزن باعتراضه المبدئي الأولي التالي « بما أنّ للأفراد، الذين اندمجوا في صفوف الجماهير، صفات تختلف عن الصفات التي يتسم بها الفرد في حالة الانعزال، فإننا نرى لوبون يتحدث عن (خصائص الجماهير) التي (لانجدها لدى الأفراد)، وبالتالي اصطنع تضاداً بين الفرد وبين الجمهور، تضاداً ليس له من وجود في الواقع . »

علاوة على ذلك، يتحدث **لوبون** عن « مشاعر الجمهور » و « أخلاقه » وعن « وحدته النفسية » وغيرها . فيما يخص هذا الرأي، قدّم **كلزن** ملاحظته

---

(١) راجع مجلة (Imago , VIII . S . 97 ff)

(٢) لوبون (١٨٤١ — ١٩٣١) مفكر فرنسي، مارس مهنة الطب، وألف كتباً عديدة علمية وأدبية، ولا سيما في تاريخ الحضارات. وقد اشتهر كعالم اجتماع نفسي عندما ظهر كتابه (Psychologie des foules) « سيكولوجيا الجماهير » (١٨٩٥) وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى العربية من قبل عادل زعيتر، وخاصة هذا المؤلف تحت عنوان « روح الجماعات » . (المترجم)

الصحيحة الثاقبة : « إننا نلاحظ أن لوبون يؤكد كل التأكيد ، أحياناً، على تجسيد وحدة مجردة ، كل التجرد ، ووضع واقعي ، ناجم عن افتراض وجود روح جماهيرية، لعلاقة انسجام المضمون في نفس كل فرد . ونراه يرفض رفضاً سريعاً، الأخذ بالفرضية التي تقول ، أن الأمر لايعدو ان يكون ، في هذه الحالة ، غير تعبير اختزالي ايضاحي لمجموعة من الظواهر المفردة المشابهة » .

« بما أن الأفراد (في ظل الجمهور) يظهرون خصائص جديدة، فان **لوبون** يجسد مفهوم الجمهور ، ويعده (جسماً) ، ويعده فرداً جديداً يحمل تلك الخصائص الجديدة » .[(١)(٢)]

إن فرويد لم يقع في هذه الأخطاء المذكورة آنفاً ، **على الرغم من انطلاقه من** وصف لوبون . بالنسبة اليه **لاوجود** سوى لنفس فردية ، **وهذا** ما نجده تماماً في مؤلفه « توتم وتابو » . فالشيء المميز لسوسيولوجيته **هو أنه** استوعب وفسر ظاهرات روح الجماهير ، في نظرية **لوبون** ، **كظاهرات روح** فردية . وطرح السؤال عن نوع تلك الرابطة التي تجمع بين الأفراد **في ظل** الجماهير ، وتصيُّرهم إلى وحدة ملتحمة ، واستنتج أن هذه الرابطة **هي في الدرجة** الأولى الأيروس (Eros)[(٣)] بالمعنى الواسع للكلمة .

---

(١) في Imago ، المصدر السابق . ص ١١٢

(٢) يقول غوستاف لوبون في كتابه روح الجماعات (ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠) : « وهي كخلايات الجسم الحي ، التي يتألف من اجتماعها موجود جديد ذو صفات تختلف عن صفات كل وحدة من هذه الخلايات » .

(المترجم)

(٣) Eros ، هو اله الحب الجنسي لدى الاغريق . ابن الهة الحب أفروديت ، ومرافقها الدائم . في كتاب أفلاطون المأدبة (Symposion) نجد الايروس يجسد العنصر الروحي والعنصر المادي ، فهو يتوق نحو الحكمة ، كما يتوق نحو اللذة . وتستعمل هذه

إن جمهور ، حسب رأي فرويد ، لايمكن أن يقوم له قائم، دون وجود « قائد » . « ليس الانسان حيواناً قطيعياً .. انما حيوان في رهط ، إنه كائن فرد في ظل رهط ، يقوده زعيم » . إن هذا الرأي ينطبق على كل تجمع اجتماعي ، والأمر سيان ، إن كان القائد انساناً ، كما هو الحال ، في « جمهور البدائي » الأصلي ، الطبيعي » أو فكرة قائدة ، كما هو الحال ، في التجمعات المنظمة والأكثر استقراراً من تلك ، والتي تؤول إلى مؤسسات اجتماعية . أشخاص عديدون متساوون ، في استطاعتهم التماثل مع بعضهم البعض ، وشخص فريد ، يفوقهم قدرة وذكاء : هذه الحالة التي نجدها تتحقق في الجماعة الجديرة بالحياة . « وقد استخدم فرويد، لأول مرة ، كي يشرح علاقة الجماعة بالقائد ، نظريته الجديدة حول بنيته الشخصية ، التي اتخذت شكلها النهائي ، في مؤلفه « الأنا والهو »[٢] . هنا نراه ينطلق من انقسام شعور الفرد إلى أنا وأنا ـ مثالي ، ومن وظائف الأنا ـ المثالي ، كالتأمل الذاتي ، والنقد الذاتي ، والضمير . وقد أوضح فرويد الصلة الغريبة من نوعها ، التي تربط الفرد بالقائد ، مفترضاً ، ان القائد يتولى مهام الأنا ـ الأعلى ، ولهذا يشلُ فعل الأنا ـ المثالي لزمن معين (هذا يعني طول مدة تكوين الجماعة) . إن « رجل الجماعة » حيوان بدائي في ظل الرهط ، عنيف شديد ، يحيا دون نقد ذاتي ، ودون حواجز ، ودون ضمير أيضاً ؛ لهذا نجد لوبون يصف « النكوص » والتراجع الى

= الكلمة الآن للدلالة على تلك الروح الخفية، التي تبعث فينا الشوق كي ننزع نحو الحقيقة والصلاح والجمال . فالايروس أو الحب العظيم هو حافز الطموح في الرجولة ، يدفعنا الى اكتمال الذات ، والى معانقة الخير والمطلق ، والحلم بالخلود (سواء عن طريق أبناء حقيقيين أم روحيين) . (المترجم)

(٢) (Das Ich und das Es)

حالة بربرية لدى تحدثه عن « الجماعة الاجرامية » . إن هذه الحالة كلها يمكن سكبها وتلخيصها في صيغة واحدة : ان الموضوع ، أي القائد ، قد حل بدلا من الأنا ـ المثالي .

إن الجماعة ، حسب رأي فرويد ، تتألف من عدد من الأفراد ، وضعوا نصب أعينهم نفس الموضوع ، عوضاً عن أناهم ـ المثالي . ولقد تنازلوا عن أناهم ـ المثالي واستعاضوا عنه بمثال جماعي ، يتجسّد في شخص القائد ، كما هو الأمر في حالة الحب والعشق ؛ لهذا نرى أنه في استطاعتهم ، أن يتماثلوا مع بعضهم . إن جوهر الجماعة ، إذن ، يكمن في علاقة فريدة مزدوجـــة الاتجاه : إنها علاقة تربط الأعضاء بالقائد من جهة ، وتربط الأعضاء بعضهم بـ بعض من جهة أخرى . ومن المؤكد أن الجمهور البشري لا يؤول إلى جماعة إلا بواسطة هذه الرابطة المزدوجة الاتجاه . إن أهمية «علم نفس الجماعات» بالنسبة لعلم الاجتماع ، قد تجلت ، في ذلك الحين ، بصورة رئيسية ، في خطوات التقدم في علم مناهج البحث ، والتي أعلن عنها في مقدمة كتابه : « لا يستطيع الباحث في الحياة النفسية للفرد البشري ، أن يغض الطرف عن الفرد الآخر ، لهذا فان علم نفس الفرد هو في ذات الوقت أيضاً ، علم نفس اجتماعي ، منذ البداية . . . »

« . . . يعالج علم النفس الاجتماعي ، اذن ، الفرد (التأكيد من قبل المؤلف) معتبراً إياه عضواً في عشيرة ، في شعب . . . »

ففي نطاق علم النفس الاجتماعي ، وتحت تأثير هذه «القاعدة الأساسية» ، يبدو وكأنما قد انتهى أمر تلك المفاهيم الصوفيـــة الزائفة ، كمفهوم « روح الجماعـات » ومايشابهها ، حيث تستخدم ، ببساطة كلية ، استعارات لغوية

كحقائق. ووفق هذه الطريقة تطور علم النفس الاجتماعي مبتعداً عن أفق التصوف، كي يغدو علماً.

نتوخ في الوقت الحاضر، إلى تأكيـــد وجهة النظر الديناميكية للدوافع، كما نؤكد أيضاً التقدم النظري الذي أوضحناه في هذا البحث، كما ذكرنا، والذي لاقى شكله النهائي لأول مرة في مؤلف «الأنا والهو»، لاسيما في ايجاد المعنى مجرد «الأنا ـ الأعلى».

في الواقع، إن صياغة هذا المفهوم، قد كونت جسراً يربط علم الاجتماع بعلم النفس التحليلي. وتكمن المسحة الابداعية في تكوين معنى الأنا ـ الاعلى في تبيان أن التضاد القائم بين دوافع الذات والمحيط، يستحيل إلى تناقض داخلي، عندما يتشكل في الجهاز النفسي وتحت تأثير العالم الخارجي الحاد رادع: الأنا ـ الاعلى.

فما كان قبلاً يطبع بطابع الخوف من العقاب، يغدو ردعاً خلقياً. والصراع القائم بين الدافع والبنية يؤول إلى صراع نفسي بين دوافع الذات والأنا ـ الأعلى. وبهذا أثبت فرويد اثباتاً قاطعاً، أن الوجود يحدد الشعور، وليس العكس، مسبغاً على هذه القضية مضموناً واقعياً مجسماً.

ولايسعنا في الواقع إنكار، أن «الصيغة الاجتماعية العـامة» (Konfiguration) (على حد تعبير عالم النفس الألماني بندكت Ruth Benedikt) تحدد إلى حد بعيد تطعمل الأنا ـ الأعلى، ومضمون الوصايا والنواهي المنبثقة منه. وقد قدمت أبحاث سوسيولوجية واتنولوجية مقارنة، في السنين العشر الماضية براهين متواصلة، داعمة القضية الفرويدية الجريئة. إن هذا الرأي، حول نشوء الأنا ـ الأعلى، يفسر أيضاً ظاهرة غريبة في عصرنا الحاضر، جلبت صعوبات جمة

لعلماء الاجتماع ، وخاصة لزعماء الحركات العمالية : وهي أن العمال ، وحتى أولئك الذين يعون طبقتهم ، يلاحظ أن موقفهم في ظروف سياسية او اقتصادية حرجة ، كالاضراب والحرب والثورة المضادة ، لايتلاءم مع ما ينتظره المرء منهم ، نظراً لاتجاههم السياسي الواعي ، مع أن ما ينتظر منهم ، يكون في الحقيقة ممكناً ، ويستحق المطالبة في تلك الحالة الواقعية .

إننا نعلم الآن أن مرجع الخيبة في هذه الظروف يعود إلى الصراع الداخلي بين الأنا ، مع كامل أفكارها التقدمية الواعية ، والأنا الأعلى الذي يدفع الشخصية دفعاً ، وبصورة لاشعورية ، كي تخضع للسلطة التقليدية .

إن أمل الاشتراكيين النظريين ، الذين اعتقدوا وفقاً للنظرية المادية التاريخية ، أن التغييرات التي تطرأ على عملية الانتاج ، ستقود لامحالة تلقائياً إلى قيام الثورة ، وبالتالي أيضاً إلى تغيير البنية الفوقية الثقافية ، حسب المعنى الاشتراكي ، لم يتحقق كل التحقيق . والذنب يعود إلى أثر الأنا – الأعلى العائق المؤخر .

ويأخذ كتاب فرويد « عنصر اللارضى في الحضارة »[1] مع كتابه الذي ظهر قبل هذا بثلاث سنوات « مستقبل وهم » مكانة فريدة في المؤلفات الفرويدية بكاملها . هنا نكاد نشعر بفرويد الانسان ، على نقيض ماناواه في مؤلفاته السابقة ، حيث يبقى شخصه محتجباً – ربما باستثناء كتابه « مذكرات حول الحرب والموت » – واننا نسمع هنا صوت حكيم طاعن في السن ، يدلي بحكمه الصافي حول عالم تسوده روح فوضوية ، لذا يعم مؤلفاته هذه نغمة توحي بالحاقة ، فيها القساوة والجلد ، وفيها الأسى المر على أوهام ومثل

(١) (Das Unbehagen in der Kultur)

عصفت بها ريح الضياع ، وفيها الشك والتخبط المتكهن حول مصير الانسان الأوروبي وحضارته . وانه ينطلق من المصادر الثلاثة لآلام البشرية : قوة الطبيعة الفائقة ، زوال الجسم البشري ، وعدم اكتمال البنية الاجتماعية . ويتطرق خاصة إلى السؤال عن علة « النبع » الثالث « للشقاء » ويتساءل ، ألا تعود هذه العلة ، في الدرجة القصوى ، إلى جزء « ذي طبيعة لاتغلب » ، إلى جبلتنا النفسية ذاتها .

ان الحضارة ، أية حضارة كانت ، تقوم على الحد من اشباع الدوافع الفردية ، بفضل « التكوين الارتكاسي » و « تصعيد الدوافع » ولا سيما « التخلي عنها » . « إن هذه المسحة الحضارية ، التي تخيّب أمل الدوافع الأصيلة ، تسيطر على العلاقات الاجتماعية بكامل مجالاتها ؛ ونحن نعلم تمام العلم ، سبب روح العداء المتأصل ، الذي يجب أن تكافحه جميع الحضارات » .

إن روح العداء المتبادل تحدد بشكل مستمر حياة الجماعة . إن هذا العداء أولي ، أي معطى مباشرة ، بما أنه وليد دافع التحدي الطليق . من يجد لديه الشجاعة الكافية ، بعد خوضه تجارب الحياة وفهمه التاريخ البشري ، أن يعارض هذه الجملة : « الانسان ذئب للانسان ؟ » (Homo homini Lupus) .

إن جزءاً من هذه التحديات يمكن إزالته ، عن طريق تشكيل فئات وجماعات ، « لأنه من الممكن دائماً أن تتوقف عرى الحب في جماعة من الناس ، وقد يزداد هذا الحب باضطراد ، إذا ظلّ آخرون يعبرون عن عدائهم وتحديهم » .

وقد يتسرب جزء آخر من التحدي ، إلى داخل الذات ، مع مجرى تطور الفرد ، وهذا الأمر يساعد على بث روح القساوة في الأنا — الأعلى ، وفق

عملية جدلية وضعها وعرفها **فرويد** نفسه . رغم هذا يبقى عامل العدوان أو التحدي ، عاملاً مزعجاً لانتشار السلام ، إنه الخصم العنيد للحب العظيم (Eros) ، الذي بدوره يعمل أبداً ضده ، حينما يحاول العدوان ، أن يصهر الأفراد ، في بوتقة واحدة ، تتسع مع الزمن .

هنا تعتمد الأفكار الفرويدية على تخيل **بيولوجي** ، عكس ماشاهده في مؤلفاته السابقة ، حيث اعتمد على مراقبة **الواقع السيكولوجي** . فهو لم يعد يعتبر التطور الحضاري كنتيجة تولد عن الجدلية القائمة بين الانسان والبيئة ، وانما « كعملية خاصة تجري فوق سماء الانسانية ، وتبين لنا الصراع الأبدي القائم بين الحب العظيم (Eros) والموت ، بين الحياة والفناء . فيلاحظ أن الحتمية البيولوجية قد صيرته متشائماً . ومن المؤكد أن اضافته جملة جديدة ختم بها كتابه « عنصر اللارضى » ، الذي صدر منه طبعة ثانية ، قبل حريق مجلس الأمة بأشهر قليلة ، ليس من دواعي الصدفة وحسب » ، وهي « لكن من ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بشيء عن النجاح أو التدهور (في هذا الصراع) ؟ »

إن الأثر الذي خلفه « اللارضى في الحضارة » في العلوم الاجتماعية ، لايمكن وصفه بكلمات ، أفضل من تلك التي قالها **هرمان هيسه** (Hesse) : « كلما أحكمنا تكوين قضية إحكاماً متيناً ، كلما طالبت تلك القضية بنقيضها بشكل لايقاوم . » وبكلمات أخرى : إن قيمة هذا الكتاب تكمن خاصة في النقد البناء ، الذي أحدثه لدى رجال السياسة وعلماء الاجتماع وبعض علماء التحليل النفسي .

وقد تعرض **فرويد** لنظريات المعارضة **السياسية** حينذاك ، لأننا نراه

يعتبر المثل الاشتراكية وهماً من الأوهام في كتابه « عنصر اللارضى في الحضارة » إلا أن فئة من علماء التحليل المحدثين رفضوا التغييرات التي طرأت على نظرية الدوافع في كتابه هذا ، لأن هذه التعديلات هي سبب « الميول التشاؤمية المتحفظة » التي نجدها فيه . وبالاتفاق مع العديد من علماء الاجتماع ، أجمعوا على الرأي القائل ، إن الميول العدوانية في الانسان لاتنجم ، بصورة حتمية ، عن دافع الموت الفطري أودافع الفناء والابادة ، بل اعتبروا هذه الميول ارتكاسات طبيعية على ضروب فن الحرمان ، في عهد الطفولة وفيما بعده ، لكن مبدئياً يمكن تجنب هذه الارتكاسات (Reaktionen) .

إن ضروب الحرمان هذه ، تنشأ في السنين الأولى من عمر الطفل نتيجة للتدابير التربوية العديدة التي تريد أن تنظم وتروع أو تضغط ، فيما يخص وظائف الطفل الحيوية ، كالتغذية والنوم والافراز وحب الحركة ، الحاجة الى التكلم ، الجنس ... — لاشك ان معظم هذه التدابير قاسية أو لالزوم لها في مجتمعنا الحالي . إن شدة الميول العدوانية تتعلق ، حسب رأيهم ، بنوع وشدة الحرمان ، وهذا ينطبق على الطفل كما ينطبق على المراهقين والكبار . إن درجة الحرمان ، لدى الطفل الصغير تتوقف الى حد بعيد على النظام التربوي السائد في العائلة ، وتلعب الدراسة بالنسبة للتلميذ دوراً هاماً الى جانب التربية المنزلية ، أما بالنسبة للمراهقين والكبار فيبرز أثر البنية الاجتماعية المباشر ، بروزاً أكثر وضوحاً ، وأما المقاييس التربوية ، المدرسية والعائلية ، فتؤثر على هؤلاء تأثيراً غير مباشر ، لكنه ليس أقل فعالية من أثر البنية الاجتماعية المباشر . وقد اجمع هؤلاء الباحثون على الرأي القائل ، إن مشاعر العجز ، وخوفه من سلطة الأهل ، وقلقه على فقدان عواطف المحبة ، تحيل دون اتجاه التحدي أو العدوان نحو خارج الذات . هذا

يساعد على حفظ التحدي في داخل الذات . ولاننسى أن أثر مشاعر الطفل الايجابية إزاء مربيه ، يعمل على دفع عجلة هذه الحادثة الجدلية ، التي تؤدي الى تكوين أنا – أعلى ، يزداد قساوة باستمرار .

وعلى نقيض ما ادعى **فرويد** ، يجزم هؤلاء ، أن تطور الحياة العقلية ليس تطوراً حتمياً بيولوجياً ، ولا تطوراً لايمكن التملص من ربقته ، وتجنبه . فهم يؤكدون ، أن « إنسان » **فرويد** هو عبارة عن نموذج بشري ، يظهر في زمن معين ومجتمع معين ، وهذا المجتمع المعين يتميز بأنه يلقي على عاتق أعضائه ضروباً مختلفة من عوامل الردع . فالانسان الذي يثير الشفقة ، والذي يطالعنافي « مستقبل وهم » و « عنصر اللارضى » هو انسان المدنية الغربية الحاضرة ، انسان « مجتمع الحشد » ، هذا المجتمع الذي يثقل الطفل والكبير بأنواع شتى حقيقية من الحرمان

التراث :

إن كتاب **فرويد** « عنصر اللارضى في الحضارة » هو في الواقع خاتمة المطاف ضمن سلسلة مؤلفاته ، في مضمار علم النفس الحضاري الخاص ؛ ذلك لأن مراسلته مع **اينشتاين** (Einstein) « لماذا الحرب ؟ » (١٩٣٤) ومؤلفه « الرجل موسى » (١٩٣٧ / ٣٩) لم تأت بشيء جديد يذكر . لذا نضطر أن نوجه اهتمامنا بعد عام ١٩٣٠ شطر مؤلفات تلاميذ فرويد ، الذين استمروا في في تطبيق طريقة التحليل النفسي ، إبّان دراسة الظاهرات الاجتماعية ، واضعين نصب أعينهم معلمهم مثالاً .

قد تبع معظم هؤلاء خطوات المعلم باخلاص ، ولم ينحرف مبدئياً بأي شكل من الاشكال ، عن الطريقة التي نهجها **فرويد** . هناك مثلاً محاولات

روهايم (Roheim) التحليلية حول علم الشعوب وأصولها ، ودراسات فلوجل (Flugel) التحليلية الاجتماعية ، كتلك التي تبحث في المقاومة اللاشعورية ضد تحديد النسل ، وبحوث كلوفر (glover) في الحرب والسادية . لكن الى جانب هذا ، ظهر اتجاه جديد في الثلاثين الماضية ، تحرك في البدء ، في فسحة تفكيره البسيكولوجي ، فوق اسس التحليل النفسي ، إلا انه رفض افتراضات فرويد الاجتماعية .

إن هذا الاتجاه اتخذ موقفاً يعارض النزعة التشاؤمية الفرويدية، ويعارض الميل الذي اجتاح العديد من علماء التحليل النفسي ، الساعي الى صبغ الحادثة الاجتماعية « بالصبغة البسيكولوجية » المحضة ، هذا يعني تعليلها بصورة مستقلة عن البواعث الاجتماعية الواقعية المعطاة فعلا ، والناجمة عن دوافع لاشعورية . إن الاوضاع الاجتماعية ، التي كانت سائدة في تلك الآونة ، دعت هؤلاء للتشبث بمثل هذه الآراء مافيه الكفاية . كان سلطان الرايخ الثالث قد بسط نفوذه آنذاك في اوروبا الوسطى ، مركز حركة التحليل النفسي العالمية . وقبل أن يلتفت الشر السامي اليهم التفاتة قاسية ، بفترة وجيزة ، وجيزة جداً ، استيقظ فيهم الشعور بضرورة وضع معارف علم نفس الاعماق في خدمة الحركة المضادة للفاشية . وهكذا أنجز رجال من أمثال فينيخل Fenichel وفروم (Fromm) ورايش (Reich) ، وكذلك إلى حد ما لانداوور (Landauer) تحت وطأة هذا الكفاح ، عدداً من المؤلفات المفيدة ، والقيمة جزئياً ، والتي تكشف أهمية التحليل النفسي ، من حيث هو نواة لبناء بسكيولوجية مادية تاريخية في المستقبل ، وكان ذلك في السنين الأخيرة ، قبل نزوحهم عن الأراضي الألمانية .

أما من الناحية الاجتماعية ، فكان نشاط هور كهايمر (Horkheimer) ومار كوزه (Marcuse) وجماعتها الفرنكفورتية ، ينصب في الاتجاه ذاته.

يستطيع المرء تلخيص العلائم المشتركة الكامنة في دراسات هؤلاء الباحثين على النحو التالي : إنهم يعتقدون أن البنية النفسية لانسان عادي معاصر، مع مايكمن فيها من « العلق الحضاري واللارضى » انما هي وليدة صراع جدلي لطاقات بيولوجية واجتماعية . ويتميز المجتمع الحالي بالتصنع والترشيد (التنظيم العملي العلمي للانتاج) وتوزيع العمل من ناحية العمل التكنيكي الفني، وبالتجمعات البشرية (انشاء المدن) ونزوح السكان من حيث الحركة السكانية (ديوغرافياً)، وبينية الطبقات ، والصلات الابوية الآخذة في الضعف ، وزمن المراهقة المتأخر كل التأخر ، ونزعة التفكك على الصعيد الاجتماعي . إن هذا المجتمع ـ مستعيناً بنظمه التربوية ـ لايضغط على النزعة الجنسية لدى الطفل المترعرع وحسب ، بل وأيضاً على ميوله العدوانية المتبلورة ارتكاسياً (reaktiv - aggressive) المنبعثة من المجتمع ذاته. كذلك هو الأمر بالنسبة للكبار ، فالمجتمع يعمل على سلبهم كماً لابأس به من اشباع جنسي ملائم وسنهم . لقد أوضح هذا فرويد (١٩٠٨) وأثبته كنزي (Kinsey) إحصائياً قبل مدة من الزمن .

هكذا يعمل على تربية جيل من الأفراد ، ضعيفة أناهم ، يخشون الحرية ويجزعون من تحمـل المسؤولية ، لايثقون بأنفسهم ، يشعرون بالوحدة في أعماقهم ، ليتشوقون للعيش في ظل الاطمئنان ، والخضوع لسلطة الوالد ، بدلاً من تربية شخصيات قوية سليمة ، تتحمل عبء المسؤولية . إلا أن المجتمع يعوض لهؤلاء الأفراد شيئاً ما من خلال التكوينات الجماعية : كالأمة والعرق، أو كذلك عصبة سرية أو النوادي . ويحصل المرء من جراء هذا التكوين

الاجتماعي ، عن طريق « النرجسية الجماعية » على صمام يحول طاقته الحيوية-الغريزية (الليبيدو)[1] ونزعته الاعتدائية المحصورة . وكلما ازدادت شدة الضغط ، كلما كانت الامكانية اكبر في اختيار الفرد ذي الأنا الضعيفة -مع مايكمن فيه من استعداد لتقبل الديماغوجية - هذا الانضمام السهل ، بدلاً من اتباع طريق اكثر صعوبة من أجل اشباع صحيح لدوافعه ورغائبه .

لهذا فان القلق الحضاري واللارضي عن الثقافة ، ليسا سوى ظاهرة من الظاهرات المرضية السائدة في مجتمعنا الحالي ، وعرض من أعراض تدهوره . ويتحتم علينا اعتبار هذا العرض كشرط مسبق من الشروط الاجتماعية الهامة ، التي تؤدي إلى هاوية الانحطاط الكلي .

إن هذا التطور بأجمعه لا يثبت فقط عمق الجذور التي ضربتها اكتشافات فرويد في تربة العلوم الاجتماعية ، بل يثبت أيضاً « أن هذين العاملين في الواقع ، ينبعان من صلب الحياة .

(١) Libido كلمة لاتينية تفيد معنى الشهوة ، استخدمها فرويد وقال عنها انها طاقة حيوية ، شبقية في جوهرها ، فيما تتمثل غريزة الحياة ، والليبيدو لا يشمل لديه غير طاقة الغريزة الجنسية ليس الا. نقد العالم يونغ هذا ، وجعل هذا اللفظ يشمل « كل طاقة نفسية » حيوية ، الجنسية منها وغير الجنسية . (المترجم)

هدية

كتاب ثمين من مطبوعات وزارة الثقافة

تحصل عليه

بعد شهر واحد

من تسديد الاشتراك في :

مجلة المعرفة

الشعر

المعمار

هو الشعب العظيم ، في إبائه ورضوخه ،
في انتصاره وهزيمته ، في تلاحمه وانقسامه ..
هو الشعب العظيم ، مشرداً ، ثم عائداً ..

نصوح فاخوري

(١)

غَضَبٌ يسيلُ دماً ، وراء مقاطع الشعر الوليد
كسلاسل الفولاذ ، مشدودٌ الى عُنُق القصيد

* * *

يمضي هناك ، وراء خطّ النار ، في فَرَح اللهيب
والشعر ، جرحٌ نازف ، من كلّ قافيةٍ صبيب

* * *

بُشرى ، فأحبابُ الحياة ، وراء « يافا » يُبعثون
فلتنطفىءْ — ياهامةَ الانسان — جمجمةُ الجنون !

* * *

من كلِّ نَسْمٍ طلقةٌ ، ورصاصةٌ من كل نَبضَة ؛
طوبى لفرسانِ الضُّحى ، بَزغوا ، وبعض الليل غمضة !

* * *

من كل فجٍّ ميّتٍ ، تَنْثالُ خيلٌ أو بنادق
ومن الرمال الخُرْسِ عاصفةٌ ، تزمزمُ ، أو بيارق

* * *

هذي خُطاهم ، تقرع العتباتِ ، فاخسأْ ياحديد
جبهاتُهم عَوَبٌ ، فمن شَرَفٍ يسيلُ ، ومن نشيد

(٢)

العارُ أوراقٌ ، في الدم المساولِ ، أفنانا ، وأزهر
يارحمتا للمجد ، للانسانِ ، من طرحٍ مُدمَّر !

* * *

يارحمتا لبراءة الانسانِ ، جُرِّد من سلاحه
من فكره الخلاّق ، من عينيه جُوِّد ، من صباحه

* * *

مافي مرابعه سوى دمه ، تساقته الرمال !؟
والذكرياتُ السُّودُ ، تسرحُ في ميادين القتال .

* * *

يا ويح للكف المقرّحة ، الثقيلة ، كالزمان

نسرٌ على زُرق الذُّرى ، غشيته غربانُ الهوان

* * *

أيُعمرُ الزيفُ المشوّه ، مجدّه ، فوق الطلول ؟
وتعضُ أغلالُ الهوانِ ، على الصناديد الفحول ؟

* * *

وعلى أزاهير الصباح ، وفوقَ أحداق الصغار ،
يجري الجنونُ خيولَه ، سُوداً ، فينطفيء النهار

— ٣ —

مجدٌ ، تقاذفَه الرياح ، تصكُ جبهتَه الرياح !
عن كل أفقٍ باذخٍ ، ينحطُّ ، مخضوبَ الجناح

* * *

أيَحولُ بطناً فارغاً ، في عيدِ فوّادي زمانه ؟
ويدٌ زنداً جائعـــاً ، متسولاً ، في عنفوانه ؟

* * *

لا .. لن يَمدَّ الى موائدِ قاتليه الساعدَين
فليَطعَم الأحقادَ ، فالاحقادُ أملأُ لليدين !

* * *

الذلُّ ، لم يَنقشْ على أعقابه ، نَدبَ الخنوع
والحرُّ أغربُ ما يكونُ ؛ وليس من عَرَبٍ خضوع

* * *

كم حاطمه ، من عاهرين ، وسامه من قاتلين
داسوّدوا - إذ ساوموه - بعُهرهم ، وَضَحَ الجبين

* * *

أمْ التّسوُّلِ عاقرٌ
ومَضَتْ به ، أمٌ وَلُود :
« اقدحْ شَرارَكَ ، وانتفضْ
في جبهةِ الليلِ الحقود »

– ٤ –

أماه ؛ طوّحت الخيولُ السودُ ، بالأرض الصبية
فقأت عيونَ صغارِها الخضراءَ ، والمُقَلَ الذكيّة

* * *

وانشقّ عن أفقٍ ، وراء البحر ، آلهةُ السعير
سحَبتْ على الأصباح ، موجاً من دخانٍ مُستطير

* * *

وكما تشقّ صواعقُ الأبدِ السحيق الكائنات
شقّت قذائفهُ الثقالُ ، فؤادَها الدامي ، فمات

* * *

وانسلَ ضلعٌ منه ، معتوهٌ ، وسحَّ الرعب سَحّا
تلتفُ من حوليه ، أجنحةُ اللظى ، جنحاً فجنحا

* * *

يَتَنداحُ ، في النسماتِ ، أسراباً ، تعوبدُ في الجِواء
وتصبُّ من شريانها المِعطـــاء ، يُنبوعَ العطاء

* * *

القولُ : «ماتت» قصةٌ بَتْراءُ ، مَحَتْها المطارق
من قبضةِ المعارِ ، تنبثقُ المغـاربُ والمشارق !

* * *

لكأنَّ عصرَ العقل،عصرُ النور : قهّارَ الجُنون
متمرّدٌ ، يَطأُ المدىَ ، بِلظى المطارقِ ، والعيون

* * *

ومن الجراحِ ، تنفّضَ الانسانُ ، من غَرَقِ الجراح
وتفتّحت حدَقُ الصغارِ الخضرُ ، تعابرُ في البِطاح

* * *

لا بدَّ من يافا .. فكم ملأتْ سنابلُها يــديه
كم قدَّ من غابِ الزنودِ السُمرِ ، سُمْرةَ ساعديه

* * *

كم أنبتَتْ جنَباتُ هذا الكوكب الدامي معاصم
مرّت على القارّات، لمَستُها ، نسائمَ أو حمائم

- ٥ -

الحقدُ أورقَ ، في الدم الانسان،فُرساناً،وأزهر
لكأن آلاف العصور معاً ، تشقُّ الدربَ ، أحمر

* * *

وكأنّ من حجر الجبال ، تشبُّ نيران المشاعل
فمُقاتلٌ ، يهوي هويَّ الشُّهب ، يحفزُه مُقاتل

* * *

وكأن ملحمة ، وراءَ الدهر ، يبعثها الوعيد
وكأنّ أشلاءً ، مجنَّحةً تصفق من بعيد

* * *

النار تُلهبُ كلَّ من ماتوا ، فيختلجُ الرماد
وتردُّ نبضَ القلب ، في شريانِ وعديدِ جماد

* * *

يا أيها الليلُ الطويلُ .. تنحَّ عن لُمَعٍ طوالع
فمن السنين الغُبْرِ ، يومىءُ مطارقٌ في السهل ، لامع

* * *

الصبح ينساحُ انسياحاً ، من مطالعه ، ويقدح
وتصيحُ ، من حوليه ، حنجزة المطارق ، وهي صُدَّح

* * *

هي ضربةٌ ، لم يبق إلا ها ، وتندفقُ الخيول
وتدكُّ أسوارَ الجنونِ ، حوافرٌ عربٌ فحول

* * *

المجدُ للانسان ، والفرحِ الطليق ، وللطفولة
المجدُ للمعار ، أنىّ شقَّ ملحمةَ الرجولة

بساتين الحكايا المجدبة

محمّد أحمد العزب
ـ القاهرة

راكضٌ في الريح ..
لاألْـوي على شيءٍ ..
أغنّي للمساءْ
أنحني ..
أشربُ من نَبْعٍ خرافيٍّ ..
وأمضي للوراءْ
أحتمي بالشمس من ظلّ النهارْ
وأغاوي كلّ حيتان المحيطات ..
وأغْفو في القرارْ
حكماءُ الهند أعطوْني طقوساً للزهاد
فقراءُ الصين أعطوْني سيوفاً للجهادْ
جنّ بي ليلٌ على سهلِ أثينا ..

فتداعى الشعراء ..
وامتطوا كلَّ الجيادْ
وأعاروا رحلتي شمساً مُدَلاَّةً على نهر الرمادْ
وتخيَّمَتْ هنيهاتٍ على الصحراءِ ..
أسنافُ الرمالْ
والمدى الصامتُ تنّينٌ خرافيٌّ يقيءُ الصمتَ في ليل المَلالْ
مَرَّ بي دهرٌ ..
أتاني بعده حاصدُ تمْرٍ بَدَويّ
مَسَحَ الكفَّيْن في وجهي ..
نهاني عن عبور الجسر ..
أعطاني حجاباً ..
قال يمتصُّ افترار المتمكِّنِ الدفّاقِ من صدر الحُبالْ
يابساتين الحكايا المجدبة ..
ياحصادَ الرحلة التعبى وراء الخبز والحكمة والوحْي النبيي.
ياعُيوناً فيَّ لاتشبع إلاّ باقتحام الأزلي
حكماءُ الهند صيادو ذبابْ
فقراء الصين شحاذو اغترابْ
أغنياء البدْوِ حشّاشون يجتابون صحراءَ الضبابْ
وألوفُ الشعراء ..
في أثينا ..
حفنةٌ من لاعبي النار .. وفرسان العذابْ

يابساتين الحكايا المجدبة ..
ياضفافاً لاتراها الشمس إلاّ في الشتاءْ
منطفي فيه انهزاميون غيري ..
شعراءْ ..
شعراءْ ..
يجمعون الحنطة السوداء من كلّ الحقولْ ..
ويعيشون خفافاً فقراءْ
آه من يملك أن يملك تغيير الفصولْ
آه من يقدر أن يُرْجِعَ عهْدَ الشهداءْ
فالجذورُ انفصلتْ عن طينها ..
وتعرّتْ للهواءْ !!!

•

رحلتي كانت لخُبْز الذات ..
للنبض الذي ينبع مني .. ويُهاجرْ
ولوجْه الشعر كانت رحلتي عبر الخاطرْ
فاحْزموا كلّ الوصايا الجامدةْ
وأهيلوا فوقها العشْبَ على أوّل طوفانٍ مُسَافِر .
وأضيئوا الشمع للطوفان يأتي من جديد
لم أَقُلْ مِنْ أَيْن ؟؟
لكنّي مع الشّعر الذي يأتي على أول طوفانٍ مُسافرْ !!

الدخول في القنوات المغلقة

محمد عمران

«١»

ترابي وجهك المائيُّ ، أذروه على شفتي ، أفتتُ فيه ذراتي ،
وأسكن في تفتّحِ نبضهِ ؛ أبني غدي المسروقَ ،
ياوجهاً-أهاجرُ فيهِ ،
يا أرضاً بلا ريشٍ ، على عينيَّ أحملُها ،
وتنقرني ،
وتفقأ عينيَ الزرقاءَ ؛
أرميها ، وأسقط فوقها ،
(من كسَّر الثاني ؟) ،
ألملمها ، تلملمني ، شظايانا التقتْ ، ذراتنا اعتنقت معاً ،

من قال : نحن اثنان ؟
وجهك لابسٌ وجهي !

. . .

« ٢ »

أخرج من عينيك ، وجهي هابطٌ ، أدخل في يديك
مقترباً في جزر الأصابع الصفراء ،
أيُّ ساحرٍ يُحيلني عوداً ، أو حجراً ، أو كلمةً صفراء في كتابك العتيق ،
أيُّ ماءٍ يُطفئني ، يُعيدني رماداً في ليلك الغريق ،
أي لغةٍ بليدةٍ
أدفن فيها غضبةَ القصيدةِ ؟!

. . .

أخرج من عينيك ، من يديك ، من غرامك العتيق
أمشي في سلالم النسيان ،
كلما صعدتُ سُلَّماً ، قرأت لوحاً باسمك الكبير ،
آيةً في سورة الحب ،
قرأت نعوة الظلام والهزيمة ،
انكفأتُ ، عدت أبدأ الطريقَ ،
عدت عاشقاً ، يداك مرفأي ، كوكباً ينوس في مدار شمسك الحزينة .
... وكلما دخلت في عينيك ، في يديك ، انطفأ التشوّقُ العجيبُ ،
عدت رملاً منهزماً ،
كتاباً ممزقاً ،

عاد في صحراء . عدت بيتاً للوجع المهجور ؛
للحزن الذي يجيء آخر المساء جائعاً ،
كهفاً لكل خوفك الجريء ،
للدموع تشرب الزوايا ،
والسقف والجدران منها، يشرب القاع، السرير المرتمي في هجعة السكينة
وصرت لا أعرف هل أكره ؟ هل أحب ؟ هل يداك موفأي ؟
غرقي؟ طريقي ؟ أم جبلي الوعر ؟ سقوطي أم سلمي ؟
عيناك منتهاي أم بدايتي ؟
ظلامي أم شمسي الخضراء ؟
مشنقتي أم بيتي المفتوح ؟ لا أعرف هل أعيش أم أموت فيها ؟
وصرت
أخاف من بلاهة الضياء في عينيك ،

من توقد الظلام . خوفي يحملني اليها ،
أدخل في هشاشة اليقين فيها ، أدخل في السواد ؛
ها عيناك ناقة أناخها الموت ، أصيح : استيقظي وقومي !
ولا تقوم . لم تعد لها قوائم . أصيح : لاتقومي !

« ٣ »

أمشي ،
يداك جسد منعجن بالعهر والخطيئة
يداك لحم طفلة بريئة
أحفر في ترابه ، أغوص تحت صخرة العبادة

هناكَ حيث غبطة الولادة ْ
نارٌ تضمُّ العهر والبراءة ْ
في موقدٍ ، العريَ والعباءة ْ!

* * *

أمشي ،
أدب اليكَ يا جسداً تطهره الخطيئةُ . يا كتاباً
تحت الطفولة وجه أحرفه ،
أدبُّ اليكَ . أقرأ بالأظافر كل حرفٍ ماتَ

(حبي ،
بعيدكَ لي . يحدثني . كأني
ولدت على شفاهكَ . أو كأني
بعثتكَ في شفاهي . آهٍ ، لولا
يُقالُ ، دخلتكَ . انعجنت حروفي
بكَ . استقطرت شهوتكَ . اتحدنا)

أمشي ،
أدب اليكَ في قنوات لحمٍ جفَّ ؛
أكتشفُ التكلُّسَ ،
سُدتِ القنواتُ ، أبقى فيكَ . لامنجى . اختنقنا
لاسقف يفتح مقلتيه لنا ، ولا جدرانَ
أرعى السقفَ . أرعى جبهة الجدرانِ . لامنجى . اختنقنا

قنوانكَ الصمّاءُ . أبقى فيكَ . ترعاني وأرعاكَ . انطفائي فيكَ ،
موتك فيَّ . تشعلني ، وأبعثكَ . احترقنا
معاً ،
هذا رمادك في دمي زهرٌ تفتحَ ؛
ها رمادي فيكَ أغنيةٌ ؛ أضئني ،
صرتُ صوتكَ . صرتُ ناركَ . صرتُ أنتَ ؛
املأ دمي جمراً ،
أضئني ، أو أضيئُكَ ،
أنتَ معجزتي ...

« ٤ »

وتضيعيني ، أُضيعكِ . أشمُّ على كل نبتةٍ ريح ثدييكِ ،
أرى شَعرك المنتفَ مرمياً على كل غيمةٍ ،
صوتكِ المخزوقَ في كل نسمةٍ ،
ألحق النبتةَ ، والغيمة العصية ، والنسمةَ ،
أمشي ،
ألملم العبق الهاربَ ،
والشَعرَ ،
أنسجُ الصوتَ ،
ها أنت تعودين في يدي ،
لن تضيعي ...

جراح من الخندق الأول

أصدقائي الشعراء ... مرحبا .. نحن ندعوكم الى مشوار – بعد اختناق القمر – في سفوح الجولان ...

فايز خضّور

تكريس

وطني يقلّدني نهارَه ،
يا خيبةَ الزمن المكلّس في طريقي ،
لا تنبحي عَصَبي ... مصيرُ دمي حجارَةٌ ،
وأنا أغاوي « فيزياءَ » الطين ، تَنْهو في العبارة :
تهتزّ عَبْرَ فمي ، تنطّف من عروقي
وتغيب في الجدران ، تهدمها ، تفكّ أسارَ موتى الظلّ ، تمنحها –
حضورَ الريح ، وهجَ النار ، عزّ الفتح ، بازهارَ التشفّي ..
يا طحلبَ الظمأ المكوّم في المضيق

ومدّ وراء النبض . قافـلةُ الضنى ساحتْ ، وجاوزَت اليباسَ
ليدرك الشعبُ انتصارَهْ ..

يا خنجر الشمس المؤله بالحريق
وطني يقلّدني البشاره ..

يوميات مقاتل

- ١ -

شالَ قبلَ الفجر جُنْحَهْ
هاجراً نافورةَ الذعر ، الجفافْ
يتملى ، بنشيج العاشق المفجوع ، جُرحَهْ
مورقاً شوكاً ودفلى ،
غامزاً خَصرَ الضفاف ..

- ٢ -

وطني يا بُركةَ النفي المدمى
طائراً ألقاك عبرَ الغيم ، رعّافَ الأظافرْ ..
عندما جئتك طفلاً ، يستبيني بهوجُ النعمة ، أبكي .
زئبقيّ الجسم ، لا أقوى على النطق ، سرابيّ الملامحْ ..
وطني ، رُدّ إليّ اللونَ رمليـــاً ، وطيّرني الى الحمّة نسراً حاقـدَ
المنقار، جارحْ ..

- ٣ -

وطني يا جمرةَ التوبة ، آتيكَ من العتم شرارة :

« يعوف التائه سفحَهُ .. »

زرعوني في الثرى المطلول شوفاناً ، وهرُّوني بيادرْ

وصَعوني جوشناً للفتح ، شدُّوني على الخصر خناجر

صيَّروا قلبي كمأى ،

علقوني رقماً ، رمزاً ، اشارة ،

موّهوا لونَ عيوني ،

عرَّشوا كفيَّ صبَّاراً ، وغابوا :

نُسُغاً في الأفق ليلي المسيرة .

صرتُ أدعى ـ بعد ما كُرِّستُ للقتل ـ رصاصَة ،

تنزى شهوةً للموت ، لاترتدُّ ، تنهلُّ بشائرْ

مرةً راعيةُ الهضْبَةِ راحت تتغنّى :

« رائعٌ أن يولد الانسان أسودْ ،

رائع أن يصبح للأشقر أسود :

فاحمُ الوشم ، جحيميُّ السريرة ..

يا عصافير السفوح الجرد ، قولوا لحبيبي :

أسبِلِ الدمعَ ، ولوِّحْ بالمناديل الخضيبة

إنني أحيا أسيرة
كيف حالُ الشوقِ بعدي ؟!
كيف حالُ الناسِ ، والأرض سليبة ؟!

- ٤ -

وطني يا وقفة العزِّ ، أعِرْني صهوةَ البرق ، وكحِّلْ مقلتي باليُتْمِ ، واملأها ، مجاعةْ ..
علّمني في رَهَجِ القار أُباهي ، أتوى
ساحقاً غَنْجَ الدلال الرخو ، في عُمْرِ الرضاعة ..
أصدقائي ، شعراءَ الشام ، في ليل الوداعة ،
عبّئوا أقلامكم ، بالخمر ، بالماء ، وبيعوا « وطنيّة » .
وتقاضَوْا ثمنَ الحرف مرايا ،
قبلكمْ ، كنتُ زمـاناً ، أنهكُ السمّار بالخمر ، أعبّي قوب الليل حكايا

آهِ ، يا جيلَ المرايا ..!!
قبلكم ، كنت أناجي من كُوى الحانات مجدَ الوطنية
قبلكم .. واخجلةَ الصوانِ في درب الضحايا ..

- ٥ -

يا صبايا الشام ، يا كلّ انعطافٍ في رصيف الصالحيّة
يا صبايا ..

من تُوى منكن تُحيي نخوةَ القتل ، وإدلاجَ العشيّة ؟ !
حين ننسى النومَ ، لا نُغرى بضوءِ القمرِ
وارتعاشاتِ الليالي الحمرِ بعدَ الخَدَرِ
والطقوسِ الوثنيّة ..!!
يومَ لاينهار سورُ العالمِ الأسيانِ في رهز السرير الناعمِ
الهفهافِ ـ والهمسِ الملوّنْ ..
يومَ لا تدرون بالأطفال في الجولان ، في زحف المنيّة ..

الى راعية

«مرة تجاوز قطيع من الماعز خط وقف اطلاق النار ، فحاولت راعيته الصغيرة أن ترده ، ولكنها أخفقت ، فكان أن انفجر لغم فقتل قسماً منه ، فذعر القطيع ، وساح في الأرض المحتلة ، أرضه .. ساح ولم يرجع ..»

لا تردّي الماعزَ الهيمانَ ، خلّيهِ على الأسلاك يثغو ،
يتخطّى وطنَ الخطف ويرحلْ
مثلَنا يهوى ، ويُقتَلْ ..
دوّخيه لحظةَ الذبح المدمى في حنايا الحُفَرِ
علّميه لغةَ الرفض ، وتفتيحَ الجراحْ
أقنعيه ـ كلّما جاع ـ بمضغِ الحَجَرِ
آهِ ، يا جنّاءَ وجهِ الحَجَرِ ..!!
أسمعيهِ أغنياتِ الحاصدين السمرِ بينَ الشررِ
عَبْرَ وهجِ النيزكِ المنداح ، لا ضوءِ السراجْ

واتركيه يتصبّى مربعَ الخضرة منذ الصغرِ .
عَلـَّنا نهدُ مثلـَهُ ..!!
كـُلـُّنا يحمل قهرَ النفي في الأضلاع نبْلَه .
نتشظّى في رسيس الليل لـُغماً ورصاصْ
نتعرّى ،
ننحني جمرَ خلاصْ ..

ياحبّنا المغلول

مسرة شاكر

ياأرض ، ياوجعاً تئنّ له الضلوعْ
ياحبّنا المغلول تجرحه الدموعْ
ياغربتي . في كل بيت ألبسوا حزناً مريرْ
وتلاوموا ، واستفحل الداء الخطيرْ
كشفوا النقابَ وأسدلوا ، ذروا الرمادْ
ألقوا بنا في كل وادْ
حملوا الرسالة . أفعموا الدنيا عطاءْ
بسطاء نحن وطيبون وأغبياءْ

* * *

نارٌ تمدُّ لسانها خلفي ، وفي وجهي السَّمومْ
وألوب من ظمأ : ولاغيثٌ ، ولاظلٌ ولارؤيا تحومْ
ياما حكتْ عيناكِ لي أشياءَ يخطئها الكلامْ

ياما وبضتَ بجانبي كالنمرِ عضته السلاسلُ شدّ فكيْه اللجام
أبكيك ياغوي الجريحْ
أين المخالبُ والنيوبُ ، فلستَ تُرعبُ إذ تصيحْ ؟؟
قلبي يجرّحه الحنينْ
والصمتُ ، والشوقُ العنيدُ ، وسوءُنا القلقُ الدفينْ
فمتى ؟ متى تتفجّر الأعماق ياربي وتنفطر الحواجز والسدودْ
ومتى سينفلتُ التمردُ والعذابُ بلا حدودْ ؟؟
الشوق يذبحني . يسيح مع المدى
الشوق يوجعني . وتوجعني ارتعاشات الندا
أأظلُّ أنتظرُ الفصول ؟؟
تمضي الفصول
والنهر تخنقه الرواسبُ واندفاعاتُ السيولْ
والدربُ تغرقها الوحولْ
والناس في كل اتجاهْ
يحكون عن أسطورة النهر الإلهْ
ويقدمون له الضحايا والنذورْ
لكننا في الأرض تختنق البذورْ
والموسم الغالي يضيعْ . وموعدُ الأمطار تشربه الرمالْ
وتموتُ أفئدة الرجالْ
ويجالد الناسُ المرارة والصقيعْ
ياضَيْعةَ الأحلام ياوطن الربيعْ

* * *

الشوق يوجعني ، وأحلم باللقاءْ
ياحبنا المغلول ، يجرحني النداءْ
وحدي أكابر لهفتي ، والليل يجتذب المرارة وامتدادات الضياعْ
فتصدُّني عنك الشكوكُ بما أعاني من صراعْ

* * *

في وجهك القاسي رؤى شعبٍ تمرّس بالعذابْ
شعبٌ برغم الصمت والحرمان نودي ، فاستجابْ
ياما حكتْ عيناكِ لي ، إصرار شعبٍ لن يضيعْ
يهوى الصخور الراسخاتِ ، يحبّ أشواك البراري يركب الليل المريعْ
آمنتُ بالحب الذي مثل العواصف كان في صدري يجيشْ
مازلتُ أملك أن أعيشْ
فلقد وجدتك من جديدْ
تعطي صبوراً طيّعاً ، أو تنثني صلداً عنيدْ
وضممتُ فوق الجرح كفي ، أكتم الوشم الجديدْ

القصّة

التراب

د. حسام الخطيب

حين فتحت عينيها واجالت النظر فيما حولها ، لم تستطع ان تدرك شيئا بادىء ذي بدء ، الا ان حواسها اخذت تستيقظ تدريجيا - كأنما كانت في سكرة طويلة - وتنقل اليها انطباعات عن المكان غير مفهومة تماماً ، كانت اذنها مستريحة تماما ولم تنقل اليها صدى اية نأمة ، وكان انفها في حالة انتعاش تتطور لحظة اثر لحظة وهو يتنشق نسيا فجريا مبطنا برطوبة لذيذة ومعطرا بشذى خفيف مبهم ، وكانت عينها انشط الحواس ، اذ ترتب عليها من دون الحواس الاخرى - كالعادة - ان تحسم الموقف وان تعطي الحكم النهائي في تحديد المكان والزمان اللذين كانا موضع التساؤل .

وشيئا فشيئا تعرفت العين الى خيوط مضيئة تخترق نسيج ظلمة غير كثيفة ، وبمساعدة هذه الخيوط الضوئية كانت العين تستدير برخاوة لتتبين جدرانا صخرية تضغط على المكان الضيق باستثناء فوهة غير صغيرة عرفت منها أن المكان ليس الا كهفا طبيعيا في بقعة غير مألوفة .

لكن كيف وصلت الى هنا ومتى ؟ بل من تكون ؟

وماذ تفعل في هذا المكان ؟ وفجأة بعثت الاشياء حية في ذاكرتها ، مختلطة ومتداخلة مع فجوات كثيرة تتخللها واسئلة متزاحمة ولكنها غير ملحة . سألت نفسها اولا هل هي حية او ميتة ؟ وكان في وهمها منذ ان هبت عليها النفحة الاولى من الادراك انها في عالم الاموات . حركت عينيها فتحركتا ، حركت يمناها فتحركت ، حركت يسراها فتحركت ، اذن هي حية . وانبعثت من داخلها نفحة سرور عابرة ومختصرة، تشجعت على اثرها وحاولت تحريك رجليها ، فتحركتا ولكن بثقل شديد وضمن مدى محدود جدا، اذن هي حية، ولكنها غير متمكنة من قواها، ولابد ان تكون جريحة . ولم تحتج الى وقت طويل حتى خمنت ان الجرح في مكان ما من وسطها، ربما في معدتها على التحديد ، ولا بد انه ما زال ينزف وربما بشكل محدود جدا كما تقطر حنفية لم يحكم اغلاقها ، ولابد انه نزف كثيرا من قبل . هكذا اوحت لها قطع الدم نصف المتجمدة حول خاصرتها بعد ان تحسستها بيدها ..... اذن لقد زحفت من مكان المعركة حتى هنا وهي لاتستطيع ان تقدر المسافة هل كانت مسافة قصيرة ام طويلة ، لاسبيل الى معرفة هذه الاجوبة ، ولكنها تدرك الآن انها جرحت في معركة ، وان هذه المعركة هي الاولى في حياتها وربما الاخيرة ، ولم يكن ذلك ليحزنها كثيرا ، لم تكن حياتها موضع بحث وهي على حالتها تلك ، بل على العكس كان يخامرها

شعور بالراحة ناجم عن نوع من الالفة الغامضة مع الارض الرطبة من تحتها والجدران الصخرية المطبقة من فوقها والفوهة التي كانت تزداد وضوحا والفة في كل لحظة . وفي مكان ما في اعماق نفسها كانت تجري مطابقة عجيبة بين انطباعاتها الحالية عن الكهف وبين انطباعات مكانية اخرى مغرقة في القدم ومتأصلة في الهوى السحيقة من كيانها ، وازدادت ادراكا لهذه المطابقة حين حاولت ان تبل ريقها فاذا بلعابها يختلط بالتراب الذي احست به يغطي فمها ووجهها وسائر جسمها ، ولاول مرة في حياتها تحس ان طعم التراب غير كريه ، بل ان هذا الطعم العجيب الخشن في غير ايذاء ، المحايد بين الملوحة والحلاوة ، نقلها سنوات بعيدة مغرقة في القدم . وبعث في مخيلتها صورة مرحة : اعتادت ان تلعب يوميا في الشارع الترابي مع اترابها من ابناء الحي ، وكانت تعفر ثيابها وتلطخ وجهها بالتراب سواء لعبت الدحل ام تعاركت مع احدى رفيقاتها وسقطت معها على التراب وتقلبت عليه ، كانت دائما تحت التراب تحت رائحته وتشعر بالارتياح حين يعفر ثيابها وخديها . شيء واحد فقط كان يعكر عليها متعتها ، غضب امها في المساء ، وكان هذا الغضب يتضمن بندين لابد منها : بهدلة عنيفة مصحوبة بدعوات قاسية : الله يقصف عمرك ، الله يعدمني اياك .. الله . الله ، ثم عملية تعذيب تتضمن الضرب على اليدين او الخد احيانا وتنتهي بغسيل اجباري لليدين والرجلين والوجه بماء مفرط بالبرودة يزيد من لذعه احيانا تدخل امها لفرك ظاهر يديها والاشراف المباشر على عملية ازالة التراب ، ولم تكن تفهم لماذا تأنف امها من التراب وتشتعل غيظا لمرآه على جسد ابنتها . فقد كان التراب جزءاً من حياتها اليومية بل هو علامة وجودها واستمرارها واستمتاعها بالحياة . كانت حجة امها تتلخص في كلمة

واحدة : وسخ ؛ وكانت الابنة تفسر موقف امها بأنه انانية محضة فالام تكره التراب لمجرد انه يضطرها لغسل أغطية الفراش وملابس الابنة ؛ انه عدو للأم ولكن الابنة رفضت دائما ان تشارك امها هذه العداوة .

وتلمظت بالتراب مرة ثانية، احست انها حرة مع التراب هذه المرة ، حرة الى اقصى حدود الحرية ، انها تأكل التراب الآن وتحس به يغطي جسدها . لطالما حنت الى هذا التراب في اعماقها ، ان طعمه هو طعم التراب الاصلي الذي لم تستطع ان تستمر بالاستمتاع به في طفولتها اذ انتزعت منه يوما ما هي واهلها واترابها ؛ كانت ما تزال صغيرة وليست تذكر سوى كلمات مبهمة لم تكن تعني الشيء الكثير لها في ذلك الوقت .. اليهود ، الانكليز ؛ لاجئين ؛ الشام .. فلسطين . ولكن هذه الكلمات اخذت معناها وارتبطت بعضها ببعض مع تطور وعيها لحياتها الجديدة في مخيم اليرموك حيث طرأت تغيرات حاسمة على اساوب حياتها ، الخيمة بدل البيت والجوع احياناً واتراب جدد واختفاء الأب من البيت وشغل متواصل في البيت . ولم يتح لها ان تستمتع بالتراب بعد ذلك الا قليلا ولكنه على أي حال لم يكن التراب نفسه الذي تعشقته وحين كبرت بعد ذلك واخذت تسمع عن التحرير والفدائيين لم تكن فلسطين تعني بالنسبة لها أية فكرة محددة ، كانت يافا وحيفا والقدس وطبرية وصفد نقاطا سوداء مستديرة على الخريطة ، كانت فلسطين اسما مجرداً لأمل غامض بسعادة ليس لها مفهوم محدد ، ولم يكن ذلك ليخفى على الفدائية الشابة حين بدأت تذهب الى التدريبات الشاقة في معسكرات بعيدة غارقة في احضان جبال وعرة . كانت قسوة التدريب تثير في نفسها دائماً اسئلة من نوع ما هي فلسطين ولماذا كل هذا العذاب ؟ ومامعنى ان تتحمل شتائم المدرب الفظ من اجل شيء لاتعرفه . واحياناً

كان يخيل اليها ان مخيم اليرموك هو وطنها او على وجه التحديد هو المكان الذي تنتمي اليه، ولم يكن في ذهنها اعتراض اساسي ضد مخيم اليرموك والعشرين عاما التي قضتها فيه فقد كان، ككل الاماكن في العالم، يوفر لحظات متناوبة من السعادة والتعاسة. كانت ايامه احياناً هانئة واحياناً قاسية، ومن الناحية العملية لم يكن يختلف جذريا عن اي بقعة من بقاع العالم التي تعرفها ولاسيما بعد ان تحولت نصف خيامه الى ابنية واطئة من الطين المجفف، وبعد ان شقت فيه شوارع شبيهة الى حدما ببعض شوارع المدن القليلة التي عرفتها في حياتها . . .

في المعسكر لم يكن التدريب سهلا على الاطلاق ومرة اخرى مرّ امامها شريط التدريب اليومي الذي تكرر في حياتها خلال الاشهر الستة الماضية، واحست بيديها تغوصان في التراب وتذكرت المعركة، معركتهــا الاولى، كانت أسهل من التدريب بكثير وحين تسللت في الليل مع زمرتها من الفدائيين والفدائيات لم يكن يراودها شيء من الشكوك التي كانت تساورها عادة عند التدريب، كان يهمها أن تنجز مهمتها بصمت ودقة. وقد تم اختراق النهر بنجاح، ولكن ما إن سارت الزمرة خطوات حتى نبحت كلاب وانهال رصاص وانطلق رشاشها مع الرشاشات. . نصف ساعة وسكت كل شيء، هل أصابت أحداً من الأعداء لا تعلم، كان هناك دم يتدفق من وسطها، وكانت تزحف الى حيث لاتعلم، وكانت الظلمة الحالكة تتبدد مؤقتاً بين حين وآخر إثر ومضة من كشافات العدو التي أتاحت لها أن تتعرف طريقها بين الصخور الى فوهة الكهف، ولم تحس بشيء بعد ذلك، وها هي تستقبل فجراً اسطورياً من حياتها يختلف تماماً عن كل ما تخيلته سابقاً. لم تكن خائفة، كانت على يقين انها ستموت بهدوء، لم يكن هنـاك أمل، ولم تكن بحاجة اليه، وفي لحظة تمنت فقط أن تموت قبل أن يصل اليها الاعـــداء..

كانت رائحة التراب تفعم انفها وكان طعمه يدغدغ فمها وكانت يداها تجوسان فيه بقوة بادىء ذي بدء ثم باسترخاء، كانت الفكرة تتحقق والوهم يصبح شيئاً ملموساً، ولم تعد فلسطين دوائر صغيرة سوداء تنقط خريطة بلا اسم ، كانت النقاط السوداء تتسع لتشكل شيئاً جديداً مختلفاً يتحد بالجسم والروح ويملأ ما تبقى من وعيها الذاوي وكان وجودها الصغير يتلاشى في وجود أغنى وأعذب وأعمق .





يجري سحب الاصدار الشعبي السادس والعشرين بتاريخ ٢ ايلول ١٩٦٩

مع التيارات الفكرية

ملاحظات حول
المسرح الوثائقي

للكاتب الألماني: پيترڤايس
ترجمة: نبيل حفار

أطلق على المسرح الحديث الواقعي – الذي اتخذ منذ حركة تاليه البروليتاريا والدعاية الثورية السياسية AGITPROP ومسرح بيسكاتور PISCATOR التجريبي ومسرحيات برشت BRECHT التعليمية أشكالاً متعددة – تسميات مختلفة مثل : المسرح السياسي ، المسرح الوثائقي ، مسرح الاحتجاج ، والمسرح المضاد ، كمحاولات لايجاد تسمية شاملة جامعة لها . وانطلاقاً من صعوبة إيجاد تصنيف لطرق التعبير المختلفة لهذا الفن المسرحي سنقوم هنا بمحاولة لمعالجة احدى نوعياته التي تهتم بوثائقية موضوع معين ، ويمكن تسميتها لذلك « المسرح الوثائقي ».

- ١ -

المسرح الوثائقي هو مسرح إعلامي . وتبني المحاضر والوثائق والرسائل واللوائح الاحصائية ونشرات البورصة وأخبار نتائج مضاربات المصارف والشركات الصناعية والبيانات الحكومية والخطب والمقابلات وتصريحات شخصيات معروفة والريبورتاجات الصحفية والاذاعية والصور والأفلام الاخبارية وغيرها من منتجات العصر الحاضر قاعدة العرض المسرحي . يتضمن المسرح الوثائقي كل مخترع ، ويأخذ المواد الصحيحة والموثوق بها ليقدمها على خشبة المسرح محافظاً على مضمونها متصرفاً في شكلها . وعلى خلاف الصفة الثانوية للمواد الاخبارية المنصبة علينا يومياً من جميع الجهات يعرض المسرح الوثائقي نخبة مختارة تتركز في الغالب في موضوع اجتماعي أو سياسي . وتنتج هذه النخبة النقدية والمبدأ الذي تركب حسبه أجزاء الواقع نوعية الفن المسرحي الوثائقي .

- ٢ -

المسرح الوثائقي جزء من الحياة العامة كما تعرفنا عليها وسائل الاعلام الجماهيرية . ويُعينُ عمل المسرح الوثائقي عن طريق نقد على درجات مختلفة :

آ - نقد التمويه . هل توجه النشرات الصحفية والاذاعية والتلفزيونية حسب مصلحة جماعات مسيطرة ؟ ما الذي يحجب عنا ؟ من المنتفع بذلك ؟ على أية جماعات يعود النفع إن شوهت وغيرت بعض الظواهر الاجتماعية او فيما اذا حولت الى مثال ؟

ب - نقد تزييف الحقيقة . لماذا تشطب من الوعي شخصية تاريخية او حقبة تاريخية بكاملها ؟ من الذي يدعم موقفه الشخصي بطمس حقائق تاريخية ؟

من المنتفع بتشويه مقصود لأحداث ذات أهميـــة حاسمة ؟ أي فئة اجتماعية تستفيد من اسدال الستار على الماضي ؟ كيف تبدو هذه التشويهات المقترفة ؟ و كيف تستقبل ؟

ج – نقد الأكاذيب . ماهي تأثيرات تدليس تاريخي ؟ كيف يبدو وضع معاصر مبني على أكاذيب ؟ ماهي المصاعب التي يجب الانتباه اليها في عملية ايجاد الحقيقة ؟ ماهي المنظمات ذات النفوذ أو القوى المتسلطة التي تفعل مابوسعها للحيلولة دون معرفة الحقيقة ؟

– ٣ –

على الرغم من اتساع استعمال وسائل الاتصال الاعلامي وتزويدها لنا بشكل جديد من كل أطراف العالم بتلك مسببات وعلاقات أهم الأحداث المميزة لعصرنا مخفية عنا . وتبعد عن متناول أيدينا وثائق المسؤولين التي قد تعطينا الخبر اليقين عن أفعال لانرى الا نتائجها . فالمسرح الوثائقي الذي يود على سبيل المثال معالجة مقتل لومومبا او كنديأوتشي غويفارا او مذابح اندونيسيا او المحادثات السرية في مفاوضات جنيف حول أزمة الهند الصينية أو عن أزمة الشرق الاوسط الاخيرة واستعدادات حكومة الولايات المتحدة الاميركية لمتابعة حروبها في الفيتنام يجد نفسه في البدء تجاه ظلام اصطناعي يخفي تحت جنحه اصحاب السلطة تصرفاتهم الذاتية .

– ٤ –

ينطلق المسرح الوثائقي المناهض لكل نشـــة تعتمد على سياسة التظليم والتعمية ، والمناهض لميول وسائل الاعلام الهادفة للاحتفاظ بالجماهير في فوضى من

التخدير والتنبيه (بلاهة) من نفس منطلق أي مواطن دولة يريد الوصول الى معلوماته الخاصة ، لكنه لا يستطيع هذا بسبب يدبه المقيدتين ، فيلجأ لذلك الى وسيلة الاحتجاج العلني . وتماماً كأي احتجاج عشوائي غير منظم في ساحة عامة بلافتات وهتافات وإذاعة أشرطة تسجيل ، يؤدي المسرح الوثائقي الى ردود فعل تجاه الأوضاع الحاضرة مطالباً بإيضاحها .

- ٥ -

يُعدُّ التجمع في طريق عام ، وتوزيع المناشير ، والسير في مظاهرة ، والوصول الى قلب جمهور غفير ، أفعالاً محسوسة ذات تأثير فعالي مباشر ، وفي ارتجالها فن مسرحي قوي ، فلا يمكن التغاضي عن سياقها ، اذ يمكنها ان تمتد في أية لحظة عن طريق الاصطدام بسلطات الامن ، وتؤدي بذلك الى تمييز التناقض الحـــاد في العلاقات الاجتماعية . يحاول المسرح الوثائقي الذي يعيد تقديم وثائق العصر المخفية بشكل موجز ، المحافظة على العصرية في أشكال تعبيره . ومنذ البدء في تحويل المواد للعرض الى كل منسجم مرتبط بزمن معين ومكان محدود ، وبممثلين وشاهدين يشترط في المسرح الوثائقي شروطاً مغـايرة لتلك التي تنطبق على العمل السياسي المباشر . فلا تعرض خشبة المسرح الوثائقي واقع آني ، وانما صورة لجزء من الواقع مستقاة من الاستمرار الحياتي الحيوي .

- ٦ -

لا يمكن للمسرح الوثائقي ان يناجز المتسلطين في الدولة وفي الدوائر الحكومية من قاعة المسرح كما في حالة زحف على الأبنية الحكومية والمراكز الاقتصادية والعسكرية . وحتى اذا حاول تحرير نفسه من الاطار الذي يثبته كوسيط فني ، وحتى ان تحرر من عناصر جمالية ، وان رفض كونه شيئاً منتهياً وإنما اتخاذ موقف وعملية ونضال ، وان صبغ نفسه بمظهر نشوء آني وأخذ يعمل

دون أية تحضيرات ، فسيكون بالرغم من كل هذا نتاجاً فنياً ، ويجب أن يصبح نتاجاً فنياً إن أراد الوصول الى تبرير .

- ٧ -

فالمسرح الوثائقي الذي يريد أن يكون بالدرجة الأولى خطة سياسية علنية مستغنياً عن القدرة الفنية ، يثير عدة اشارات استفهام حول مهمته . وفي مثل هذا الوضع يكون للعمل السياسي التطبيقي في العالم الخارجي فعالية أكثر تأثيراً . ولا يكتسب المسرح الوثائقي صلاحية كاملة في الصراع مع الحقيقة إلا عندما يحول مادة الواقع المختبرة الى وسيلة فنية عن طريق فعاليته الفاحصة المراقبة الناقدة . وفي مثل هذا المسرح يمكن للعمل الدرامي أن يصبح وسيلة سياسية لتربية الفكر (الرأي السياسي) . ويجب هنا شرح أشكال تعبير المسرح الوثائقي المختلفة عن المصطلحات الفنية التقليدية وما هو المقصود بها .

- ٨ -

تتركز قوة المسرح الوثائقي في قدرته من شذرات أو شظايا الواقع المجزأ على تركيب وعرض نموذج (موديل) للأحداث المعاصرة قابل للاستخدام ، لايوجد المسرح الوثائقي في مركز الحدث ، بل يتخذ موضع المراقب والمحلل ، وبطريقته الفنية المعتمدة على التكنيك المقطعي Schnittechnik يُبرز من المادة الفوضوية للحقيقة الظاهرية تفصيلات واضحة ، ويلفت النظر عن طريق مواجهة جزئيات متناقضة إلى نزاع باق ، ليوصله عن طريق المستندات المجموعة لاقتراح حل ، أو إلى نداء ، أو الى سؤال أساسي . ويعالج المسرح الوثائقي بانتباه ووعي وتفكير عميق مايؤدي في العمليات العلنية المرتجلة أو لدى الهابينينغ

Happining ذي الصبغة السياسية لإثارة غامضة لاحدود لها ، أو لمشاركة واندماج عاطفي ولوهم التزام بأحداث العصر .

- ٩ -

يقدم المسرح الوثائقي حقائق كرأي ومطالبة بالعمل . وُيري مختلف انواع تقبل الحوادث والآراء . كما يُري دوافع هذا التقبل : يستفيد طرف واحد من الحادث ويتضرر الطرف الآخر منـــه ، تقف الأطراف مقابل بعضها ويسلط النور على علاقة الارتباط بينها ، يصف المسرح الوثائقي الرشوات والابتزاز ، الذي يجب عن طريقه المحافظة على بقاء علاقة الارتباط هذه . تظهر الخسائر إلى جانب مراكز الربح . يدافع الرابحون عن أنفسهم . يقدمون أنفسهم كمحافظين على الأمن . يعرضون كيفية ادارتهم للكم . والخاسرون على نقيضهم . الخونة – الذين يأملون بامكانيات ازدهار مادي خاص – في صفوف الخاسرين . والآخرون الذين يبذلون جهودهم لئلا يخسروا أكثر مما خسروا . صدام مفارقات مستمر . لمحات إلى مفارقات تعرض بشكل محسوس يؤدي لعدم تحملها ، مظالم بشكل مقنع مطالب بتدخل فوري . وأوضاع حدث فيها تلاعب لايمكن تغييره إلا بالعنف . يعربُ عن وجهات نظر متنازعة حول موضوع واحد . تقارن تأكيدات بالأوضاع الواقعية المحسوسة . تلي التأكيدات والوعود أفعال مناقضة لها كلياً . تفحص نتائج أعمال خُطِطَ لها في مراكز التخطيط السرية . من الذي دعم بها مركزهُ ومن تضرر منها ؟ تُثبتُ ادعاءات وصمت المشتركين بذلك كوثائق . يُبين الشك بأوضاع معوجة . يتوصل إلى استنتاجات من نموذج مطلع عليه تُميز شخصيات موثوق بها كممثلين لمصالح اجتماعية . لاتعرض نزاعات فردية ، وإنما سلوك مشروط اجتماعياً واقتصادياً . يتركز عمل المسرح

الوثائقي – على عكس التناقض الظاهري السريع الاستهلاك – فيما له صلاحية عامة . ولا يعمل لذلك بشخصيات مسرحية وسمات بيئية . وإنما بمجموعات وميادين قوى وميول .

- ١٠ -

المسرح الوثائقي مسرح متحيز . ولا يمكن لكثير من مواضيعه أن تؤدي لشيء آخر غير الإدانة . والموضوعية بالنسبة لمسرح كهذا مصطلح يخدم في ظروف معينة أعذار الفئة المتسلطة عن أفعالها . ويُبين أن نداء المطالبة بالاعتدال ، هو نداء أولئك الذين لايودون خسارة مكتسباتهم . ولا يمكن أن تعرض تهجمات الاستعماريين البرتغاليين ضد أنغولا وجمهورية موزامبيق . وتعسف حكومة جنوب افريقيا بحقوق المواطنين الافريقيين . واعتداءات الولايات المتحدة الأميركية على كوبا وجمهورية الدومينيكان وفيتنام إلا كجرائم مفروضة ومن طرف واحد . ويبرر فن تكنيك – الأسود – الأبيض Schwarz - Weiss - Technik لدى وصف حملات النهب وقتل الشعوب دون أية ميول صلح من جانب المعتدين . وبكل امكانيات مؤازرة الأطراف المنكوبة .

- ١١ -

يمكن المسرح الوثائقي أن يتخذ شكل منصة قضاء . ولكن لايحق له حتى هنا التشبه بروح القضاء المسيطرة في محكمة نورنبورغ أو قضية آوشفيتس في فرانكفورت أو محاكمة في مجلس الشيوخ الأميركي أو جلسة قضائية لدى راسل ولكن يمكنه تحويل المسائل ونقاط الهجوم المبحوثة في قاعة المفاوضات الحقيقية

إلى إقرار وتصريح جديد النوعية . ويمكنه عن طريق البعد الذي كسبه . التوصل لإعادة تركيب وحل النزاع من وجهات نظر لم تطرح في القضية الأصلية . تنقل الشخصيات المسرحية التي تظهر على الخشبة إلى علاقة تاريخية . وفي نفس الوقت الذي تبدو فيه أفعالهم ، يُعرض التطور الذين هم سببه ونتيجته. ويلفت النظر أيضاً إلى ظواهر متبقية ناتجة عنها . وعن طريق فعالياتهم يُفصح عن علاقة الارتباط التي مازالت تتدخل في الواقع في سياق آلي . ويمكن لصالح طرح القضية الأصلية حذف كل الانحرافات وكل ماهو غير جوهري . وبذلك تضيع لحظات المفاجأة والتأثير المكاني وطابع الاثارة الشعورية . ويُكسب ماله صلاحية عامة . ويمكن للمسرح الوثائقي أن يشرك الجمهور في المفاوضات . هذا الذي لايمكن حدوثه في قاعة المحكمة . فيمكنه وضع الجمهور مكان المتهمين أو مكان أصحاب الدعوى . كما يمكنه جعله عضواً في لجنة البحث . فيمكنه التوصل إلى معرفة عقدة أو استفزاز موقف سلبي إلى أقصى حد .

- ١٢ -

بعض الملاحظات الأخرى للمعالجة الشكلية للمواد الوثائقية :

١ – تنظم النشرات أو أجزاء من نشرات حسب أبعاد زمنية محسوبة بدقة بشكل منسجم . تحل محل لحظات قصيرة مستقاة من حقيقة واحدة أو من نداء وحدات أكثر تعقيداً . يتلو أحد الشواهد عرض موقف ما . وبعملية قطع سريع يتبدل الموقف لآخر مناقض له . يقف متحدث واحد مقابل مجموعة من المتحدثين . ويتألف الكل المنسجم من مقاطع مضمنة بتناقضات من عدد من الأمثلة المتماثلة ومن أشكال متباينة أيضاً ومن علاقات متبدلة.

لعلاقات قوى كبرى . تنويعات موضوع واحد . تصاعد سياق الحدث اضافة تشويهات وأصوات نشاز .

ب ــ تعالج مواد الوقائع لغوياً ، ويبْرز من الشواهد الطابع المميز ، تُقدم شخصيات بشكل كاريكاتوري ، وتبسط بعض المواقف بشكل واضح له تأثير فعال . ويستعاض عن المحاضرات والتعليقات والايجاز والايجاز بأغـــان (Songs) . إدخال الجوقة والعنصر الإيمائي (البانتوميم) . تمثيل الحدث حركياً أو بشكل تهكمي ساخر ، استخدام الأقنعة والملحقات (قبعات ، أعلام ، ريش) التزيينية ، موسيقى مرافقة وتأثيرات صوتية .

ج ــ مقاطعة الإلقاء الاخباري . إدخال انعكاس (صور أو أفلام سينمائية وتلفزيونية) أو مونولوج أو حلم او حادث سابق لزمن الحدث أو تصرف متناقض. يري هذا الانقطاع في سياق الحدث والمنتج لقلقة يمكن أن تصدر عن تأثير صدمة ، كيفية تضرر فرد أو مجموعة من الحوادث الجارية . ولكن يجب ألا تؤدي مثل مثل هذه التأخيرات الحادة (الانقطاع) الى أي اضطراب ، وإنمـــا عليها لفت الانتباه الى تشعب وتنوع الحادث . لا يجب أن تكون الوسائل المستعملة غاية في ذاتها بل خبرة مدروسة .

د ــ حل هيكل البناء . لا انسجام محسوب وإنمـــا مادة خام مكثفة بشكل تيـار متقطع لدى عرض الصراع الاجتماعي أو لدى وصف وضع ثوري ، وأخبار من ميدان الحرب ، وتدبير إدخال عنصر العنف الشديد في صدام القوى. ولا يسمح لهذا الصخب على خشبة المسرح ولمعالم الرعب والتأثير الناتج عن الاستفزاز أن تبقى دون إيضاح ودون حل. وكلما تعثرت المواد الوثائقية كلما وجب الوصول الى لمحة عامة ، الى استنتاج .

إن محاولة الحصول على شكل تعبير مقنع المسرح الوثائقي مرتبط بالبحث عن سكان العرض الملائم . فان قـُدم في صالة تجارية مرتبطة بالتالي بأسعار دخول مرتفعة قـُيـِّد المسرح الوثائقي بنظام يريد هو مهاجمته . وإن عُرض خارج هـذه المؤسسة وتقيد بالمحلية حيث لا يزور العرض إلا فريق من ذوي الميول المتجانسة ، وبدلاً من أن يؤثر على الأوضاع بشكل فعال يتوضح القليل الذي بإمكان هـذا هذا المسرح عمله تجاه المحافظين على هذه الأوضاع . على المسرح الوثائقي اكتساب منفذ الى المعامل والمدارس والمؤسسات الرياضية وقاعات الاجتماعات . وكما يتحلل المسرح الوثائقي من مقاييس جمال المسرح التقليدي يتوجب عليه التساؤل الدائم حول وسائله الخاصة وعليه تطوير طرائق فنية جديدة تلائم أوضاعاً وحالات جديدة .

١٤ – لا يمكن للمسرح الوثائقي أن يوجد إلا إذا تألف من فرقة عمل مسرحي ثابتة ومدربة سياسياً واجتماعياً ، ومن أرشيف يمكـّن من البحث العلمي ، يفقد الفن الدرامي الوثائقي قيمته الذاتية إن تردد أمام التعريف ، وإن عرض وضعاً دون تبين أسباب نشوئه وضرورة وإمكانية إزالته ، وإن تقوقع في هجوم ميؤوس منه دون أن يتمكن من طعن العدو . ولذلك يناهض المسرح الوثائقي الفنون المسرحية التي تجعل من يأسها الخاص وغضبها موضوعها الرئيسي متعلقـــة بمفاهيم اللا مخرج واللا جدى وعبثية الوجود . ويمثل المسرح الوثائقي وجهة النظر القائلة بأنه في الإمكان تفسير كل جزئيات الواقع على الرغم من تعقيده وضبابيته .

في المكتبة العربية

سداسية الأيام الستة (١)

مجموعة قصصية

اميل حبيبي

عرض : عادل أبو شنب

بقراءة قصص « سداسية الأيام الستة » للكاتب الفلسطيني اميل حبيبي المقيم في فلسطين المحتلة .. لن يغرب عن الأذهان الظروف التي كتبت ونشرت فيها ، فهي من هذا الأدب الفلسطيني الذي يكافح لينمو في ظل الحربة والبندقية مثله مثل ابناء فلسطين ، الذين آثروا البقاء والتشبث بالأرض .. على الهجرة واللجوء ، وهي من جهة ثانية ، نتاج بعض وسائل النشر القائمة حالياً في فلسطين المحتلة والخاضعة للرقابة الصهيونية ، المباشرة أو غير المباشرة ، فاذا أراد دارس

---

(١) « سداسية الأيام الستة ، مجموعة قصص لأميل حبيبي الذي يعرف ، أيضاً ، بأبي سلام . نشرت أول ما نشرت في مجلة الجديد التي تصدر باللغة العربية في فلسطين المحتلة في أعقاب حرب حزيران ، ثم نشرتها مجلة «الطريق» اللبنانية في كانون الأول عام ١٩٦٨ في عدد كرس للأدب العربي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وصدرت منه طبعة ثانية بسبب من الاقبال الشديد على اقتنائه ، ثم جعلها « كتاب الهلال » في جزءين منه عام ١٩٦٩ – ويحتل الجزء الأول قصة « تحت البحر » لفيركور ، ترجمة وحيد النقاش ، وأخيراً نشرتها مجلة « صوت فلسطين » قبل فترة قريبة .

تقييمها، فإن عملية التقييم لن تكون متحررة من ضغوط الظروف المذكورة.

لقد غاب الأدب الفلسطيني المتشبث بالأرض عن أذهان القراء العرب في شتى أقطارهم طوال عشرين عاماً ، وانفصمت العلاقات الوطيدة التي كانت قائمة بين النتاج الأدبي الفلسطيني ووسائل النشر في البلاد العربية ، لكن هذا الغياب لم يكن موتاً، وإنما كان محاولة شاقة وعسيرة للتكيف مع الواقع الحياتي داخل فلسطين التي الغى الصهيونيون فيها، فيما ألغوه من المؤسسات العربية، وسائل النشر التي كانت معروفة وناشطة قبل عام ١٩٤٨ . وصهينت كل معالم الحياة الفكرية في فلسطين ، واوقعت في صفوف الادباء أقسى انواع الارهاب . وهكذا، وخلال العشرين عاماً ، بزغ فجر أدب فلسطيني وسط تلك الظروف الجديدة ، يحاول ان يكون ، ما استطاع ، صرخة في وجه الظلم وانعكاساً للأحداث التي مر بها الفلسطينيون ، وتطلعاً نحو غد أفضل ، يحمل في طياته النصر .

ومن هذا الأدب .. قصائد بالعشرات لشعراء شبان من امثال محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران .. وقصص قصيرة لنبيل عودة ومحمد نفاع واميل حبيبي وريبورتاجات ذات صبغة أدبية - صحفية كتبت عن المجازر التي ارتكبها الصهاينة في كفر قاسم ، ومن قبل في اللد والرملة ، ونشرت جميعها في صحف ومجلات علنية ،منها صحف ومجلات الحزب الشيوعي الاسرائيلي الذي كان قد انضم بعض المثقفين الفلسطينيين اليه ، (١) كي يتمكنوا من مواجهة السلطات الاسرائيلية بآرائهم عبر الحزب المعترف به ، والذي يمثل تياراً وسط

(١) انشق المسلمون والمسيحيون وبعض اليهود منذ سنوات عن هذا الحزب ، بعد أن لاحظوا سكوته عن التمييز الذي تمارسه حكومته الصهيونية : تمييز طائفي بين المسلمين والمسيحيين من جهة واليهود من جهة أخرى ، وتمييز عنصري بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . وشكل المنشقون حزباً شيوعياً آخر .

التيارات السياسية المتحكمة في الصراع على الحكم داخل اسرائيل . وقد قدر للشعر أن يخترق الجدار الحديدي الاسرائيلي ويتسلل الى البلاد العربية ، قبل النثر ، بسبب طبيعة الشعر وسرعة انتقاله ، وعرف القراء العرب شعراء الارض المحتلة ، من خلال دواوينهم التي نشرت [1] وقصائدهم التي تهافت على نشرها واذاعتها . . الصحف والمجلات والاذاعات العربية ، الى أن جاء دور النثر أخيراً وخاصة بعد حزيران النكسة ، وكان من بواكير النثريات المتسللة من داخل السجن الكبير « سداسية الأيام الستة » .

قالت مجلة الطريق في تقديمها الموجز للسداسية التي لفتت انظار القراء والنقاد :

« سداسية الأيام الستة : سلسلة أقاصيص أو حكايات أو قصة طويلة أو رواية .. أو .. فأنت لا تستطيع أن تحشرها في نوع معين من هذه الأنواع الأدبية رغم أنها اتخذت - القص والسرد - سبيلا إلى قول ما يريد كاتبها أن يقول ، ولكنك لا تستطيع الا أن تأخذها كعمل ابداعي فني أصيل ، ابتدع شكله بنفسه من أعماق النار والمعركة والتجربة الساخنة والحميمة » .

وقبل الدخول في عملية التقييم لا بد من القول ـ رداً على تقديم مجلة الطريق ـ إن السداسية مجموعة قصص قصيرة منفصلة عن بعضها ،مضموناً ،ومتصلة ببعضها في الجو العام الذي يصبغها بصبغته ، بل وبصبغ جميع النتاج الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة أيضاً ، ولقد نشرتها مجلة « الجديد » التي يعمل المؤلف

---

(١) ديوان الوطن المحتل الذي نشره عام ١٩٦٨ الشاعر يوسف الخطيب عن دار فلسطين للنشر – دمشق وديوان « آخر الليل » الذي اصدرته مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر . والدواوين العديدة التي صدرت في بيروت وقدم غسان كنفاني بعضها بدراسات عن الأدب الفلسطيني .

فيها ، قصة وراء قصة ، خلال ستة أعداد .. تأكيداً على انفصال كل منها ، وربما بدأ الأمر المطروح ساذجاً ، فماذا يهم اذا كانت السداسية قصة أم قصصاً أم أي نوع أدبي آخر ؟ غير أنه هـام للغاية ، في رأينا ، لأن بزوغ فجر القصة القصيرة وامتدادها في الأرض المحتلة يعني أن الأدباء العرب انتقلوا من مرحلة ردود الفعل السريعة التي هي الشعر الى مرحلة الأدب الذي يتطلب تمثلاً اكثر الواقع . وبناء جمالياً وشكلياً غير قائم على الصيغ التقليدية لقرض الشعر العربي ، قديمه وحديثه، وهي صيغ ينفعل الشاعر بها فتولد القصيدة .. في صورة انفجارات ابداعية .

واذا ما حاولنا تقييم السداسية ،بعد هذا كله ،درجنا الى عدة ملاحظات:

الملاحظة الاولى هي أن أشكال القصص الست قـد ولدت من قلب مضامينها ذات النكهة الفريدة في الأدب العربي الحديث والمعاصر ، فهذا البعث للاسلوب السردي ، اسلوب رواية الحكايات الشعبية ، تأكيد لأهمية الربط بين الشكل الجديد للقضية الفلسطينية الرازحة تحت وطأة السجن الاسرائيلي ، وبين أشكال التعبير الشعبية القديمة التي كانت سائدة في فلسطين العربية منذ مئات السنين . ويتجلى ذلك مثلاً في أولى قصص السداسية [1] ، ففي هذه القصة سرد شبيه برواية حكاية فلسطينية : « .. وعا كم يا شطار قصة ذلك الصباح » و « لقد بلغني من فم العصفورة » غير أنه سرد مستخدم بمنتهى الحذر ، وبملاءمة بينه وبين طبيعة المرحلة الفكرية التي يمر بها العالم ، ربما تأكيداً على عدم جمود الفكر الفلسطيني عند القوالب الشكلية الجاهزة المتوفرة له ؛ كإرث ماض .

الملاحظة الثانية .. هي ان الكاتب قـد ألح على انتقاء ألفاظ معينة ؛ استخدمها في جميع قصص السداسية ؛وهذه الالفاظ ، وان كانت تجنح نحو العامية

(١) قصة « حين سعد مسعود بابن عمه » .

الفلسطينية ؛ إلا أنها تطعم نصوص القصص بنكهة جميـلة ؛ وبتعبير واقعي ؛ مستقى من الحياة اليومية للفلسطينيين الآن . وقد يكون لهذا مغزى كبير .. فاللغة العربية ما تزال ؛ رغم ضغوط « الصهيونية » ومحاولات فرض العبرية بدلاً من العربية ؛ لغة التداول اليومي بكل ما في ذلك من ديناميكية وتطور .

الملاحظة الثالثة .. هي أن السياق القصصي لايجنح إلى التعقيد والغلو في الشكلية ، لأن المضمون الواضح ، في كل من القصص الست ، لايفرض شكلا غريباً ، مقصوداً لذاته ، وهكذا بدت القصص مفهومة مؤدية الأهداف والمضامين التي حملتها بكل امانة .

الملاحظة الرابعة .. هي أن القصص الست عالجت « تمزقات واشواق وآمال وخيبات واحزان عمرها عشرون عامـاً » ، وعكست من أحداث الخامس من حزيران « في أغوار العرب من سكان فلسطين المحتلة ، وفي تصرفاتهم وفي تجلي الشعور الحاد بالتمزق الداخلي والعائلي والانساني ، الذي عاناه ويعانيه هؤلاء خلال أطول عملية تعذيب عاناها شعب كامل في التاريخ ، ولايزال يعانيها منذ عشرين عاماً ، والعذاب يتراكم ويتراكم ، ويتحول إلى مقاومة عنيدة ، والى انفجار انساني لابد أن يستأصل أسباب هذا العذاب الطويل [١] » ويندرج هذا المضمون دون استثناء على القصص الست ، وخاصة القصة الثالثة [٢] التي تحكي حكاية واحدة « تشتري كل فراش منهوب من الهضبة وكل خزانة عتيقة وكل صندوق ، لعلها أن تجد الكنز الذي تبحث عنه » والقصة السادسة [٣] التي تتضمن رسائل فتاة عربية معتقلة ..

(١) عن المقدمة المثبتة في عجلة « الطريق » .
(٢) قصة « أم الروبابيكا »
(٣) قصة « الحب في قلبي »

المضمون الاجتماعي في رواية

الشراع والعاصفة

أديب خضور

استطاعت رواية الاستاذ حنا مينه « الشراع والعاصفة » أن تقدم لنا رؤية سليمة وواضحة لحقبة خصبة وهامة في تاريخنا السياسي والاجتماعي ، وفي ذلك لم تكن الرواية مجرد « كاميرا » تسجل ذلك التطور فوتوغرافياً ، بل كانت أيضاً أداة فاعلة في التقاط أحد خيوط الصورة المتقدمة وابرازها ودفعها إلى الأمام ، أي الى مزيد من التقدم والنضج .

زمن الرواية .. هو سنوات ماقبل الحرب العالمية الثانية ، وسنوات الحرب ، وفترة النضال الوطني بعيد الحرب .

ومكان الرواية هو بر اللاذقية وبحرها ..

في ذلك الزمن ، وعلى هذا المكان كانت هناك قوى اجتماعية تتصارع ، وكان التطور يشق طريقه وسط هذه العلاقات الجدلية .. ويقدم لنا المؤلف مشهداً بانورامياً شديد الخصب والتركيز والوضوح عن الجو العام الأرض الاجتماعية التي تدور عليها احداث الرواية ، وللقوى الاجتماعية والسياسية المتصارعة :

تدور احداث الرواية في مدينة اللاذقية التي هي (نافذة تتنفس منها سورية وتطل على العالم فتأخذ وتعطي ، وتصدر وتستورد) وحيث (الأخلاق ترزح تحت كابوس التقاليد ، فالاقطاع هو السيد ، وفي ظله تتسم الحياة بالمحافظة والتخلف - ويكثر المتزعمون - ويكثر بالمقابل المستزلمون ، وتنقسم الحياة الاجتماعية على نحو متفاوت جداً . ويتوزع الكبار زعامة الأحياء . وزعامة المرافق . وملكية الأرض . ثم يتنازعون على كل ذلك . ويكيد بعضهم البعض ويبطشون بمن تمرد عليهم . ويستخدمون في هذا الشأن كل الوسائل ، ويظلون رغم ذلك ذوي تقاليد في الشرف خاصة ...) و (حيناً بعد حين . في هذا الحي أوذاك . يقوم رجل . أو يستيقظ عقل . أو تتولد . من نفس النزاعات بينهم . قوة تعمل ضدهم . وإذ ذاك يلوح لهم الخطر . ويضعون في حسابهم مسألة حذف هذا الشيء الجديد ...) . (لقد اقتسموا المدينة إلا أقلها . ففي حي « الشيخ ضاهر » . حيث مرائب السيارات . تسيطر عائلة مظهر على حركة النقل وخاصة على الشاحنات التي تنقل من المرفأ وإليه . وقد خطر ذات يوم لأحد أصحاب الشاحنات أن يتمرد على هذا الاحتكار فأحرقت شاحنته في قلب الساحة . وعندما احتج خرج إليه واحـــد من آل مظهر فصفعه وعاد إلى مكتبه وتكفل رجاله بالتالي ... وفي حي آخر تحكم عائلة أخرى تسيطر على قطاع آخر من الحياة . وفي الميناء تحكم عائلة ثالثة .. وكل مركب أو ماعونة أو فلوكة . وكل داخل إلى البحر أوخارج منه . يجب أن يخضع في نهاية الأمر إلى هذه العائلة على نحو ما ..

وفي وراء هذه الأمر يحكم أسر الاقطاعيين الذين يملكون الأرض في الأرياف والنفوذ في المدينة . ويحمون هذه الاستثمارات ويفيدون منها . انهم في

الواقع حكام المدينة الحقيقيون وهم غالباً على اتفاق مع الحكومة . فاذا اصطدمت مصالحهم بعقبة ما انقلبوا معارضين ؛ وعندئذ يمكن الافادة منهم في بعض الحركات وخاصة في العمل ضد أعوان سلطة الانتداب شريطة أن تكون زعامة العمل وقفاً عليهم في هذا المجال أيضاً) ..

هذه هي الصورة العامة التي يقدمها لنا المؤلف في مطلع الرواية .. ومنها نرى أبرز الخطوط العريضة وبالتالي أهم القوى السياسية والاجتماعية في علاقات معينة في وضع معين وفي ظرف تاريخي معين . البلاد تحت الانتداب . والسلطة المساعدة للانتداب هي الاقطاع والبورجوازية ، والقوى الرافضة لهذا الوضع ليست منظمة ولذلك نرى حوادث تمرد فردية شبه منعزلة . ونرى تصاعد وزيادة نفوذ البورجوازية، وبداية دخولها في تناقضات ذاتية بين أجنحتها المتعددة، وكيف تتسنم الحركات الوطنية وتستغلها لصالحها وضد منافسيها .

كيف سارت أحداث الرواية ؟! وفي أي منحى تم التطور ؟! .

ان البطل الحقيقي لرواية « الشراع والعاصفة » هو التطور . تطور البلاد من المرحلة الاقطاعية بقيمها وعاداتها ومعاييرها الى مرحلة ظهور البورجوازية وما توجده من قيم جديدة ومعايير وعادات وتصرفات خاصة .

وتطور الوعي عند الشعب — وبداية الانتقال من مرحلة التمرد الفردي والبحث عن حل المشاكل الشخصية الى مرحلة الاحساس الجماعي والشعور بضرورة التكتل والتنظيم .

وتطور البنية الطبقية للمجتمع — بمعنى بروز الحدود بين الطبقات، وبداية وعي هذه الحدود وحتمية الصراع فيما بينها .

وتطور يظهر قوى جديدة يلعب دوراً هاماً في مرحلة نضالية معينة وهي قوى الحرفيين وصغار الكسبة وأصحاب الدكاكين .

والتطور المهم الذي شهدناه هو ظهور فئات من المثقفين الثوريين ، والذين قدموا مفهوماً وتعريفاً جديدين للثقافة ولدور المثقف في المجتمع .

وتحليل شخصية الطروسي يمكننا من تقديم وتحليل طبيعة هذا التطور وبالتالي توضيح الدرب الذي سارت عليه الرواية ، باعتبار شخصية الطروسي هي المحور الذي تتمحور عليه وحوله مختلف القضايا التي تطرحها الرواية وكافة الشخصيات الموجودة فيها .

الطروسي نموذج المواطن الطيب ، بالمفهوم الكلاسيكي للطيبة . وهو بالتأكيد افراز ونتيجة للوضع الاقطاعي الذي كان سائداً . وهو يحمل قيمه ومعاييره ولكنه في الوقت نفسه يعيش الواقع ويشهد ولادة القيم الجديدة وبروز العلاقات الاجتماعية الجديدة في مدينة بدأت البورجوازية تكون هي القوة الوحيدة المسيطرة .

لقد غرقت شختورة الطروسي . وهو يحب البحر ويعبده، ويحلم بالعودة اليه تماماً كما يحب العودة الى القيم والعادات القديمة . وهو ينظر الى كل شيء من منظور ذاتي ، ولكن الواقع الجديد يقتحم عليه خلوته ، ويشده اليه . فنراه ينتصر للبحارة الذين يظلمهم أبو رشيد ديكتاتور الميناء . ونرى أبا رشيد يرسل اليه من يحاول قتله ، ولكنه ينتصر عليه ، ومنذ بداية الرواية نرى الطروسي ثائراً ، بطريقة خاصة، ضد أبي رشيد، ولكن ثورته لا تتعدى أطر التمرد الشخصي المستمد أساساً من شخصية الطروسي ، وليس فيه أي بعد اجتماعي ، أو وعي طبقي ، فهو يعلم (أن الموت جزاء من يتصدى لأبي رشيد صاحب المراعي) ولكنه في الوقت

ذاته متردد بين معاييره الذاتية وبين الظلم الذي يقع على رفاقه (لقد لام نفسه لأنه يتدخل « لصالح البحارة » ثم وجد أنه لايستطيع أن يسكت ، إضافة إلى أنه في بعض القضايا يجر إلى التدخل جراً) ونراه يتقدم خطوة جديدة على درب النضج والوعي (لا ضميره ولا لسانه بقادرين على اصطناع اللامبالاة حيال مايرى ويسمع) ولكنه أيضاً يتمنى أن يسافر ليربح ويستريح ولكن هذا غير ممكن ويصرخ (ماهذا الظلم ياناس . ! أبو رشيد هو الرب المطاع في الميناء . ويتساءل الطروسي (كيف السبيل إلى الخلاص ؟! ويعتقد أن الحل الفردي هو الخلاص (الحمد لله : اني لست من العاملين في الميناء وإلا لقتلت أو قتلت) . وهنا نرى فهم المؤلف ووعيه لكيفية تطور شخصية الطروسي التي تجد بذور بداية الصراع الطبقي ووعي الظلم والاستغلال الذي تمارسه البورجوازية التي بدأت تنمو وتتحالف مع الاقطاع وتستلم السلطة الحقيقية ، وفي تلك المرحلة من التطور الاجتماعي لابد للطروسي أن يواجه هذا الظلم إن بالصمت وإما بالعقلية الفروسية التي أفرزها العصر الاقطاعي ، والتذبذب بين هذين الموقفين مفهوم ومنطقي وفيه صدق كثير مع الواقع ، الطروسي ليس قائداً ثورياً عندما تصدى لأبي رشيد وانتصر لاحد البحارة والمسألة عنده مجرد تحدي (مادامو قد تحدوه فسيثبت حتى النهاية) ولكنه في الوقت نفسه ليس بلطجياً أوفتوة من أنه رفض قبول المديح بعد تغلبه على صالح برو قائلاً (إذا لم يعتد احد علي لااعتدي على احد) والتمرد شخصي (انا لم اقبل الذل في البحر فهل اقبله في البر) . ولكن الواقع يفرض نفسه على الطروسي ويدفعه نحو مزيد من الوعي (كانت صورة الميناء وأجسام الحمالين العارية وعروقهم النافرة ، وتفاهة حياة البحارة ، والظلم النازل بهؤلاء وأولئك ، والجوع والاضطهاد ، وسلطة صاحب المواعين التي لاتحد ، وعصابة الشر من

حوله والمصير المنتظر لكل من يقاومه) كان الطروسي يرى ذلك كله وبدأ هذا يزيده وعياً (شعر بوطأة الحياة الجارية في الميناء كأنه يحياها بنفسه) ولكنه مازال مشدوداً الى القيم والعادات قبل البورجوازية، ولهذا نراه يتذكر الأيام السابقة (في زمنه لم تكن في المرفأ هذه الحركة التجارية الواسعة، ولا هذا العدد الضخم من المواعين، ولا هذه الكثرة من العمال، ولاهذا الاحتكار لأعمال الشحن والتفريغ). كان كل شيء في بداياته (المراكب تسافر وتؤوب وفلائك الصيد تذهب وتجيء) وكل هذا الجديد، تعقد العلاقات، ابو رشيد، ظلم البحارة، الاحتكار، لم يكن موجوداً، تحسر الطروسي على «أيام زمان» شيء مفهوم، ولكنه مجرد تحسبه لمعطيات الواقع الجديدة، خطوة الى الامام، علاقات الانتاج تتغير، والعلاقات الاجتماعية تتغير أيضاً. (حتى البحارة يصبحون مجرد اجراء) الطبقة البورجوازية تزداد قوة، والطبقة العاملة تظهر الى الوجود. والطروسي-يجسد العقلية الرجولية القديمة التي هي إحدى افرازات الوضع الاقتصادي الاقطاعي والاقتصاد البضاعي أو المانيفاكتوري-ينفر من الوضع الجديد. هو لايقبله ولكنه لايستطيع رفضه. ولكن حدة الواقع وافرازاته الجديدة، ومنبت الطروسي وانتمائه الطبقي لابد أن يجعلاه يسير على الدرب في نهاياته المنطقية.

ويبدأ الطروسي يرى بعين فاحصة، وهو يرى كيف يتصرف ابو رشيد في الميناء (إنه يظهر بمظهر الطيبة حتى اذا لاح له الخطر من أية جهة، من مزاحم أو موظف، من حمال أو تاجر، من حركة تضامن أو من بوادر تكتل نقابي، من تمرد صاحب شاحنة، خلع ثوب البساطة ولبس ثوب القوة، وعندئذ تقع بعض الحوادث الزاجرة، بغرق مركب أو تحترق شاحنة، أو يضرب

رجـــل أو بنقل موظف ، أو بدفع المال ، ويتم خضوع المتمرد دونما ضجة أو اعلان) .

وكان الطروسي يرى عمال الميناء والبحارة يعيشون في خوف دائم . من يرضى عنه أبو رشيد يشتغل ومن يغضب عليه يترك الميناء أو يغرق ذات يوم قضاء وقدراً ، وكان العمل قاسياً ... وينتقل الطروسي خطوة جديدة على درب النضج والوعي ويتساءل : لمن البحر ؟! لمن الميناء ؟! ومن ملكها لأبي رشيد ؟! ومن سوده عليها ؟! أي قانون ؟! أية سلطة ؟! ، ونراه يعجب (لهذه الدنيا ولهذا الظلم) ويعود الى السؤال نفسه كيف الخلاص ؟! مؤكداً أنه بدأ يحس بضرورة التغيير رغم أنه مازال متردداً بين الفروسية الفردية والمسؤولية الجماعية (أما يكفيني همي حتى أحمل هموم الناس ؟!) ورغم ذلك (بدأت أفكار جديدة تلح عليه) وبدأ يتحسس الفرق مابين البحر (القيم القديمة) والبر (القيم الجديدة) . وبدأ يسمع ويتحدث مع مختلف النماذج . وبدأ يهتم بالأمور العامة ويسمع الأخبار السياسية ويرى بشكل أوضح (أبو رشيد مصمم على أن يكون السيد الوحيد في الميناء ، انه يدفع المال لبعض زعماء المدينة ، ويمول الحمـــلات الانتخابيـــة ، ويدعم بعض المرشحين حتى يفوزوا ، فاذا ما فازوا دعموه لدى السلطة ، وهكذا تتوطد سيطرته ويشتد بأسه) . بدأ الطروسي يدرك أصول اللعبة ،ولكن أبارشيد لم يكن يخافه لأنه (لايصلح لعمل منظم ضدي) ،ويقول: (انني لا أخشاه هو ، بل أخشى سريان عدواه الى غيره ، وعندئذ يتسع الخرق ويحتج العمال ويتلكئون ويطالبون بحقوقهم) .لقد فهم أبو رشيد حالة الطروسي: (الطروسي لايشكل أي خطر مباشر ، ومسألته مسألة مزاج وسأخضعه مع الزمن ، يكفيه الآن بعض النرفزات) . لقد أساءت البورجوازية فهم وتقدير

منحى تطور الطبقة المضطهدة في مرحلة الانتقال الى العـــلاقات البورجوازية ، وهكذا نرى الجناح الآخر للبورجوازية المتطورة اكثر والمتمثلة بعائلة مظهر تعمل على اغراء الطروسي واستغلاله لصالحها ضد أبي رشيد . ولكن الطروسي يرفض ، ونراه يحاول وضع نفسه خارج قوس من الصراع الاجتماعي ، هو لا يريد معاداة أبي رشيد ولا التعاون مع نديم مظهر ولا الانتصار تماماً للبحارة ، بل يريد فقط أن يعود إلى البحر ، انه الحنين القديم الى العهد القديم ، عهد الاقطاع والانتاج البضاعي .

في ذلك الوقت كانت تعيش البلاد فترة سياسية خصبة ، نماذج وطنية بداية الوعي رأت في المانيا النازية منقذها من فرنسا وبريطانيا ، وقوى اجتماعية جديدة تبرز كالحرفيين وصغار التجار ، والاحزاب الممثلة للاقطاع والبورجوازية الكبيرة تساوم لاستلام الحكم شكلياً من سلطات الانتداب ، وشهدت البلاد بداية التحرك ضد الاستعمار ، وحزب الكتلة الوطنية يستعد لاستلام الحكم ، ولكن الشعب لم يكن يعلق كبير أمل على ذلك ، وفرنسا تعد بالدستور ومجلس النواب وتوحيد البلاد ، وكانت الجماهير غير منظمة وكان « المخاتير والوجهاء » في الذروة ، ولكن قوى جديدة بدأت تنمو : (الاستـــاذ كامل)،وتؤكد ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . وبعد سنوات تنتهي الحرب ، وتعود الحركة الى الميناء ، ويزداد نفوذ أبي رشيد بنجاح الكتلة في الانتخابات ووصولها الى الحكم.. واللاذقية (فرحة بالحكم الوطني ، متحمسة له ، إلا أنها تتطلع ، كغيرها ، إلى استكماله) .. كان الطروسي يرى ذلك كله : الكتلة ترتكز في حكمها على بعض عناصر الاقطاع، الذين يستغلون الحكم لمصلحة طبقتهم . كانت فرنسا تعمل لسلب الاستقلال ، وبريطانيا تنشط لطرد فرنسا والحلول محلها ، ودعاة الملكية

يسعون لنسف الجمهورية ، والجماهير تطالب بالجيش والجلاء ، والكفاح يتسع ، والمناقشات تحتدم في كل مكان . وحي الشحادين مصدر الجماهير التي تنزل الى الشارع وتثبت وجودها وقت المظاهرات والمعارك الوطنية ، والصراع بين أجنحة البورجوازية الصاعدة يزداد . في هذا الجو كان لابد أن يلتقي الطروسي بالاستاذ كامل ممثل الجيل الأول من المثقفين الثوريين ، وبذلك يكون الطروسي قد قطع مسافة طويلة على الدرب الثوري السليم ، وبدأ يسمع كلام الاستاذ كامل عن أهمية تأليف نقابة لعمال الميناء ، ولكن الطروسي لم ينضج بعد . وما زال ينفر من السياسة (الناس يتحمسون للسياسة وأنا أتحمس للميناء) ، ولكنه بات يدرك أن (« نديم » و « أبو رشيد » يقتتلان لمصلحة شخصية) وان (الكتلة الوطنية والكتلة الشعبية من طينة واحدة) وحنينه الى الماضي ، الى البحر ، ما زال قوياً .

وهنا يظهر عاملان هامان يؤثران كثيراً في تطور الطروسي ، الأول هو انقاذه للرحموني ، لقد كانت الحادثة فرصة لممارسة الفروسية القديمة ولتحقيق الذات وفق المعايير السابقة ، والعامل الثاني هو تعقد الوضع السياسي وبدء الاعـــداد لحركة مسلحة ... هذان العاملان زادا من وضوح الرؤية أمام الطروسي : حبه للبحر بدأ يخف . عندما يأتي اليه نديم مظهر يعرض عليه مشاركته في المواعين لمنافسة أبي رشيد، نراه لا يرفض بل يتردد فقط : (ان مسألة كهذه لم تكن تحتاج، فيما سبق من أيامه ، الى اكثر من جواب فوري : «نعم» أو «لا» ، أما الآن فانه يضطرب ويتردد في البت كما لم يحدث معه من قبل ، ويسوف في اتخاذ القرار) ونراه يعيد على نفسه الأسئلة القديمة (ما دخله هو فيما بين نديم وأبي رشيد ، وبين الشيخ ضاهر والميناء ، وبين الكتلة الوطنية والكتلة الشعبية) ، وينتهي بأن

يتقدم خطوة وعي اخرى (وسلم اخيراً ببعض دفوع العقل ، واعترف أن له ، ولو جزئياً ، علاقة بما يجري في الميناء ، وأن الوضع فيه لا يخص نديماً وأبا رشيد وحدهما ، بل يخصه ويخص كل البحارة والعمال ويتصل بحاضرهم ومستقبلهم) .

ويسأل نفسه : (ألست بحاراً ولي مصلحة في تحسين أحوال العاملين في البحر ؟! وغداً ، أعود الى الميناء . أليس مقدراً لي أن أقع تحت تحكم أبي رشيد كغيري؟) بدأ الطروسي يحس بالجماعية ، ونراه يرفض أن يحل مشكلته الخاصة فقط بطريقة ما عندما يتساءل (ولنفرض أنه « أبو رشيد » سايرني شخصياً فلقاء أي شيء ؟! وما موقفي من الاضطهاد النازل بالآخرين ، وهل أغمض عيني وأتغاضى عن ذلك؟!) لقد وصل الطروسي الى قناعة ، واعترف بواجبه في معاونة البحارة للتخلص من الاستبداد . .

من جديد ، الدافع الجديد يفرض نفسه . والشعب ، والطروسي أيضاً ، يدرك أن الكتلة الشعبية والكتلة الوطنية اسمان لمسمى واحد ، ووجهان متماثلان لبنية اجتماعية واحدة ، وقد اتخذتا اسلوباً مشابهاً في العمل يقوم على اجتذاب الرجال النافذين في الأحياء والمرافق ، وتأتي شعبيتها عن هذا الطريق واستغلال كل شيء في سبيل الوصول الى الحكم . .

الحرب تنتهي ، والقوى الثورية في العالم تزداد قوة و كذلك قوة الشعوب . والشعب بدأ يتحرك . ويسير المظاهرات ، ويؤسس جبهة وطنية واسعة . وبينما كانت الحكومة تفاوض كان الشعب يبحث عن سلاح ، وفرنسا تماطل وتتصل بالمرشد ، وبريطانيا تستعد لاستغلال الوضع من جديد ، والطروسي يشترك في الاجتماعات التي تعقد لمناقشة الوضع وتأمين سلاح ، ورغم أنه كان قد اشترك مع

الرحموني في ملكية مركب مودعاً بذلك أحلامه القديمة عن العودة كالفارس الى البحر على ظهر « مركبه » ، ورغم أن موعد السفر قد أوشك ، نراه يؤجل سفره حتى تنتهي المعركة الوطنية (سأسافر بعد أداء الواجب) . وعندما يقول له الرحموني : « ولكن أنت بحار » يجيبه (وهل البحار على رأسه خيمة ؟!) وأثناء ذلك تزداد علاقته بالاستاذ كامل ، ويكلف بمهمة احضار السلاح وينجزها ، ويأتي موعد رحلة جديدة ويأخذ برأي الاستاذ كامل . اصبح أمتن وأشد ، وأدرك أن لا حاجز بين البر والبحر : وقل لأبي رشيد قبيل سفره (اذا سافرت فلن يسافر الجميع ولا بد أن ينتهي الاستبداد) . وعندما يفكر بمشكلة زميله أبي محمد وكيف يحلها يربطها بالمشكلة الاجتماعية ككل ويقول (صدق الاستاذ كامل . القضية ليست قضية فرد بل قضية مجتمع . ينبغي اصلاح المجتمع) .

بهذه الكيفية تنتهي رواية حنا مينه « الشراع والعاصفة » ، حيث سجلت فكرة هامة من حياة بلدنا ، مقدمة بذلك منعطفاً عرضياً لمختلف القوى الاجتماعية والتيارات الفكرية ، في علاقاتها الودية والعدائية ، وفي تناقضاتها الرئيسية والثانوية ، في تلك الفترة التاريخية التي تحدثت عنها . وتعتبر الرواية بذلك عملا ملحمياً رصد حركة مجتمعنا وتشكل وتطور بنيته الطبقية في مرحلة الانتقال من من نظام الاقتصاد الاقطاعي الى مرحلة بداية ظهور البورجوازية المحلية والكومبرادورية[1] ، وبالتالي بداية ظهور الطبقة العاملة وتوضيح كيانها كطبقة بدأت تعي وجودها وتتلمس دروب نضالها . كما رصدت الرواية توزيع القوى السياسية والاجتماعية وتباين مواقفها في مختلف الموضوعات في مرحلة تاريخية معينة، ولذني لأتساءل : كيف يمكن فهم أو إعادة كتابة تاريخنا المعاصر في تلك الفترة

(١) البورجوازية التجارية في العالم الثالث، التي تقوم بدور الوسيط بين السوق العالمية والسوق المحلية .

بمعزل عن قراءة هذه الرواية ؟! وإننا لنأمل أن نقرأ روايات أخرى لحنا مينه تواكب حركة تطور مجتمعنا بعد تلك الفترة .

وأود أن أشير في النهاية الى ان مقدرة الروائي حنا مينه على رسم الشخصيات وتصويرها بالاضافة الى فهمه العميق لواقعنا ولإنساننا ولقوانين التطور الاجتماعي. إن أحداً لن ينسى شخصية الطروسي ، رغم المبالغة أحياناً في « ذاتيتها » مع أنها طوال الرواية تنتقل من كونها رمزاً الى كونها واقعاً .

كما أود أن أشير الى فهم خاطىء الرواية يقول أن الحل الاجتماعي الذي تراه الرواية ليس الاشتراكية وانما صورة ما من الملكية المحدودة وعدم الاستغلال. الحقيقة أن هذا مسخ للرواية ، والرواية لا « تصطنع » عالماً ، ولكنها تتحدث عن تطور مجتمع في مرحلة معينة من تطوره ، وليس في الرواية ، ولا في تطور أي من شخصياتها ما يتنافى مع الفهم العميق لقوانين التطور الاجتماعي وللمادية التاريخية. وتملك الطروسي « نصف مركب الرحموني » يعني اعتراف الطروسي بالواقع الجديد، وخاصة أنه يرى بداية التمركز الرأسمالي وظهور الشركات وتحول البحارة الى أجراء ، ثم يجب ألا ننسى أبداً أن أبطال الرواية ليسوا من البروليتاريا وليسوا فلاحين . فالطروسي نفسه من خريجي المدينة ، ومن المعروف تاريخياً مدى تضخم الشعور بالذات الذي يصل الى حد الغطرسة عند هذه الفئة الاجتماعية ، التي لا تشكل طبقة، وإنما وجودها مؤقت جداً ولا بد أن يصفى ليحسم الصراع لصالح المطامع والرأسمال الكبير ، ولذلك لم يجد الطروسي ربساً على مركب خاص به بل رضي بمشاركة الرحموني والطبقة العاملة في الرواية يمكن تسميتها بالبروليتاريا الرثة ، وذلك من حيث التطور الاجتماعي ومن حيث الوعي والتنظيم أيضاً ، ومفخرة الرواية أنها تسجل تدرج انتقال الحرفيين الى بروليتاريا، وتدرج انتقال البروليتاريا

الرثة الى بروليتاريا واعية منظمة ، يصاحب ذلك كله ظهور فئة المثقفين الثوريين الذين ساعدهم التطور وبروز العلاقات البورجوازية ، وباختصار ساعدهم الظروف الموضوعية على بلورة وتوضيح ونشر الأفكار الجديدة . من هنا يمكن القول أن الرواية قد سدت فراغاً كبيراً ، وليس كما قيل أن أهميتها تأتي من أنها اول رواية عربية عن البحر .

وكنا نأمل من كتابنا القادمين من الريف أن يصوروا هذا التطور في القطاع الزراعي ، ولكن كونهم بورجوازيين صغاراً جعلهم يتظاهرون بالبكاء على نقاء الريف وصفاء العلاقات في الريف ، وذلك عندما صدمتهم المدينة ، ولذلك لم يشعروا بالتناقض بين دعواتهم الدونكيشوتية للعودة الى الريف وبين أخذهم بمجانية جميع امتيازات الوجود في المدينة .. أقول .. كونهم بورجوازيين صغاراً جعلهم ينظرون هذه النظرة الرومانسية الى الريف متعامين عما يجري في هذا الريف من ظلم ، متجاهلين فقر الفلاح واضطهاده ، وسوء توزيع الملكية ، وتحول الارض الى رأسمال وبروز وتزايد طبقة العمال الزراعيين ، وبداية ظهور العلاقات البورجوازية في الريف ، إننا بحاجة الى رواية تصف لنا ذلك كله ، تماماً كما وصفت لنا « الشراع والعاصفة » التطور نفسه في المدينة .

وفي النهاية لا بد من العودة الى التأكيد بأن الرواية كانت عملاً ملحمياً ، وكانت ايضاً صياغة سياسة لأوضاع شعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبقية في تلك الفترة التي صورتها .

قراءات نقدية

في رواية دائرية

محيي الدين صبحي

مع فساد الزمان ، وتبلد الاحساس ، والاغراق في الصغائر . . غدت قليلة الكتب التي تفتح أفقاً وتسد أفقاً ، أو تثير في النفس كوامن الشجن وتحرك في الحياة والأدب طموحاً أو كبراً ، وأقل منها تلك التي تصل بنا الى حافة الأبدية ثم تجعلنا نحلق في الفراغ بشيء من الدوار .

عن الكاتب الايطالي ، دينو بوتزاني ، لا نعرف شيئاً . وقد كان من واجب المترجم موسى بدوي أن يزود « دار الكتاب الجديد » التي تولت نشر رواية « صحراء التتار » بنبذة عن حياة المؤلف وأعماله ، ليهتدي بهـا من يريد شيئاً من العلم بأحوال المؤلف ، وان كنت أرجح أنه كاتب ايطالي شاب من جيل ما بعد سارتر : مابعد الوجودية وما بعد الواقعية الاشتراكية . إذ لا يعقل أن يكون الكاتب عريض الشهرة راسخ القدم في عالم الأدب ، دون أن نسمع به ، مهما ازداد تفسخ جونا الأدبي وازدادت عزلته عن العالم ، ان كان لدينا ثمة مجتمع أدبي على الإطلاق .

على أن أديبنا ان تجاوز المدارس الأدبية الشائعة والمعترف بها فلكي يعود الى التقليد الكافكاوي : انشاء عالم له جميع خصائص العالم الواقعي المادي، لكنه يطل على فراغ ، أو يشرف على مأساة الفراغ .

يقول مالرو في « أشجار جوز ألتنبورغ » :

« ما قيمة المغامرة الأرضية بالذات ، الى جانب هذه الرؤيا المأساوية التي أمسكت بالانسان من خناقه ؛ الى جانب هذا البرق الذي أضاء للحظة من الزمن الأعماق المثقلة بالوحوش والآلهة المدفونة والسديم الشبيه بالغابة ، حيث ينساب الممسوسون والأموات الأشقاء تحت الأردية العسكرية الدامية التي تتلاعب بها الريح ؟ إنه لسر لا يسلم مفتاحه ، بل يسلم فقط حضوره البسيط للغاية المستبد الى أعظم حدود الاستبداد ، حتى إنه يلقي في العدم بكل فكرة مرتبطة به ، كما يفعل ذلك بلا ريب حضور الموت . »

ان العمل هنا ليس إلا شكلاً من أشكال التأمل ، إذ أن المتأملين المحدثين باتوا يبحثون عن معنى الحياة ، عن رهبتها ، عن عظمتها المجوفة ، عن امتلائهـــا الميئس : في قلب العمل ، في لب المجازفة ، في أعماق المغامرة ، بدلاً من أن يمارسوا التأمل على تل منعزل في مساء يوم هادىء .

لكن هذا البطل منعزل متوحد ، منسحق تحت رتابة الأحداث ، كأنه خشبة ينخر فيها سوس الزمان ، وتتعفن تحت طحالب المصير البشري .

هو ذا عالم يفقد فيه الانسان وعيه بالغربة ، واحساسه بالصراع ، فتتخدر حواسه ويستسلم للسبات .

(ذات صباح ، في يوم من أيام سبتمبر غادر المدينة جيوفاني دروجو الذي تخرج لتوه ضابطاً ، قاصداً قلعة « باستياني » أول مركز عسكري يخدم فيه ،

وكان الظلام لا يزال راخياً سدوله عندما أيقظوه من النوم ، لكي يرتدي للمرة الأولى الثياب الرسمية التي تحمل رتبة ليوتنانت . فلما أتم ارتداءها ، تطلع الى المرآة في ضوء مصباح يعمل بالبترول ، غير أنه لم يجد في نفسه أي أثر للفرحة التي كان يتمنى أن يشعر بها . »

بهذا النثر الصحفي الجاف تبدأ وتستمر الرواية . فهذا الشاب كان يترقب هذا اليوم ، إذ كان يتوقع أن حياته الحقيقية سوف تبدأ فيه : سوف يحصل على المال ويتعرف الى الحسان من النساء .

« ومع ذلك فقد أحس في أعماقه أن أحلى سني حياته وشبابه المبكر قد انطوت » .

ها هو البطل الوحيد يشعر بالغربة ، عن نفسه أول الأمر . انه يطارد شبح سعادة مزعومة لم يعد يصلح لها ، ومع ذلك فقد ودع أمه وسار مع صديقه فرنشسكو الى خارج المدينة :

(لم يكن الصديقان يتبـــادلان الحديث ، وراح دروجو يتساءل عن الصورة التي سيجد عليها قلعة باستياني . لم يكن يعرف حتى مجرد موقعهـا ، ولا المسافة التي يتعين عليه أن يقطعها) .

وهكذا يبدأ الشاب رحلته . وهنا يبدأ الأسلوب الاشكالي ، الأسلوب المزدوج المراوغ : بريء في ظاهره ، خال من أية صور او تزويق ، ومع ذلك ، وبعد أن ننتهي في نهاية الرواية نعود الى هذه البدايات لنتساءل : هـــل يتحدث الكاتب عن رحلة دروجو الى القلعة ، أم عن رحلته عبر الحياة ؟

وهل يعقل ان يقصـد شاب غدا على مشارف الرجولة ، قلعة لا يعرف موقعها ولا بعدها ولا صورتها ؟ إنه اذن أحمق أو مهمل . ولكن ألا ينطلق كل

شاب الى الحياة في رحلة لا يعرف مدتها ولا شكلها ولا مفاجآتها ؟ فان كان دروجو أحمقاً وهو يقصد مثل تلك القلعة المجهولة ، فان كل امرىء أحمق حين ينطلق في الحياة نحو تأسيس حياة آمنة « قلعة » دون أن يعرف مسبقاً مساره ومراحله . ولكن أنى لامرىء أن يعرف ؟

يؤكد هذا التفسير اشارة خفية في السياق ، فبينما يسير دروجو مع صديقه يذكر غرفته وكيف ستغلق أمه نوافذها :

(إن تلك الغرفة لن يتسرب اليها طوال الشهور القادمة الا الغبار، أما في الأيام التي تسطع فيها الشمس ، فلن يدخل الغرفة الا شعاع ضئيل . لقد انطوى عالم طفولته في الظلام ، ولسوف تبقيه والدته هكذا حتى يجده مرة أخرى عندما يعود بعد غياب طويل .

ان هذه الأم تتصور بكل تأكيد أنها تستطيع أن تحتفظ له بسعادة قد ولت الى الأبد ، وأنها قادرة على ايقاف مرور الزمن ، وتتخيل أن الأمور سوف ترتد كما كانت في الماضي، عندما تعود من جديد تفتح الأبواب والنوافذ ، احتفاء بقدم ولدها) .

فالشاب قد غادر عالم الطفولة الى عالم المسؤولية وتجسد ذلك في أنه غادر غرفته وهي عالم طفولته ، والتأكيد على الأم تأكيد على هذه المعاني جميعها ، لأن الأم لا تعرف في ابنها مهما كبر سوى الطفل الذي ربته ، فهي تتصور « أنها قادرة على ايقاف مرور الزمن » .

كان صديقه قد أرشده الى الطريق وذكر له أنه رأى القلعة ذات يوم في احدى رحلاته للصيد ، وقدر له أنها لا تبعد أكثر من نصف نهار ، وها هو يمضي نهاره كله وينام ليله ثم يستأنف السير دون أن يصل أو يرى من يرشده اليها .

وأخيراً يشاهد ضابطـاً على جواد فيحييه ويقدم نفسه ويسأله عن الطريق ثم يتزاملان ويدور بينهما حوار طويل ترتبط به الرواية بأكملها ، وهذه أهم نقاطه :

(الكابتن أورتيز — ألم تطلب المجيء الى قلعة « باستياني ؟ »

دروجو — كلا يا سيدي الكابتن . لقد عرفت من يومين فقط أنني قد ألحقت بها) .

ان دروجو لم يطلب المجيء الى القلعة مثلما انه لم يطلب المجيء الى الدنيا أيضاً. وها هو يلتحق بالقلعة مثلما التحق بالدنيا، دون أن يكون له خيار في ذلك. على أن هذه الناحية لا تمر بسلام لدى الميتافيزيكيين : فهل هي السلطة ام الصدفة تلك التي أرسلت هذا المخلوق الى هذا المكان ، فان كانت السلطة فلماذا اختارته ، وان كانت الصدفة فلماذا تبناها .

كما أننا نجد في رواية «القلعة» ان كافكا يجعل هذه الدعوى موضع أخذ ورد طويلين بين المساح وخدم القصر . فالأول يصر على أنه وفد الى القلعة بطلب من صاحب القصر ، وهؤلاء يصرون على أن صاحب القصر لم يرسل وراءه وليس بحاجة اليه .

ومهما يكن من أمر فان الحديث يمس ناحيتين تحملان فيهما مأساة الفرد ومأساة الجماعة كما تعرضها الرواية على حد سواء . ففي حديثهما عن القلعة يدور بينهما الحوار التالي :

(دروجو - وما الذي تقصده بقولك .. قطعة من الحدود الميتة ؟

أورتيز - أقصد أنهـا حدود لاتثير القلق .. ففي الناحية الأخرى توجد صحراء كبرى .

دروجو - أتوجد هنا صحراء ؟

أوريتز - بالتأكيد. انها ساحات من الحصى.. وتسمى صحراء التتار

دروجو - ولماذا صحراء التتار.. هل كان هناك تتار ؟

أوريتز - في الأزمان الخالية على ما أعتقد ، ولو أنـــه يغلب على الظن أنهـا احدى الاساطير ، فما من أحـد منهم مر من هنـا ، حتى في عصور الحرب القديمة..

لقد تغيرت المفاهيم الآن حتى في الجيش. فبينما كان الذهاب إلى باستياني يعتبر في الماضي شرفاً عظيماً ، إذا بهم الآن يقولون انها حدود ميتة ، ناسين أن الحدود هي الحدود. ومع ذلك فمن يدري...)

وفي قطعة أخرى من الحوار يسأل دروجو :

(دروجو - ألا يشعر المرء هنا بالضيق ياسيدي الكابتن ؟

أوريتز - بل انه يشعر به... على أنني قضيت هنا ثمانية عشر عاماً.

هتف جيوفاني مذعوراً :

- ثمانية عشر عاماً ؟

وحلق سرب من الغربان على ارتفاع منخفض ، واقترب كثيراً من الضابطين).

وبالطبع ، بما أن الغربان أول المستقبلين فليس في ذلك فأل حسن ، على أن دروجو يدخل إلى القلعة بشيء من الرهبة والضيق ، وهو يود أن يفر منها ويعود ادراجه إلى غرفته وأهله ، ثم يقاوم شعور النفور هذا بوعد من الطبيب أن يرسله بعد فحص شكلي إلى المدينة متى قضى أربعة شهور فيها.

ان الأيام الأولى هي وحدها الطويلة في اقامته الجديدة ، على أن فضوله الى اكتشاف القلعة يسليه عن وحدته ، كما أن جهوده في التعرف إلى

زملائه بحزبه عن غربته . وهكذا نستعرض مع دروجو أهم شخصيات سكان القلعة وأمزجتهم تجاه القانون العسكري المفروض ، ونرى كيف يغرق دروجو شيئاً فشيئاً في الروتين المفروض ، وينام بأمان .

ان الانسان يغرق في أنحاء هذا العالم ، فيتيه في اللا انساني ويندمج في تروس آلة حاسمة ، كل مافيها محسوب ومدروس ، وليس عليه كي يفنى وهو في الحياة سوى أن يجعل نفسه جزءاً من هذا الجهاز المسنن ذي المفعول الجهنمي .

والوضع القتال الذي وجد نفسه فيه الشاب دروجو هو أنه دائماً بين خيارين لاثالث لها : فهو إما أن ينعم جمالياً بالوجود ، واما أن يخوض تجربة أخلاقية ، واما أن يندمج في سكان الثكنة ، واما أن يهيم على وجهه يضرب في الأرض .

لقد كان حتى ذلك الوقت يمضي خلال شبابه المبكر الذي لم يكن يعرف فيه معنى القلق ، في طريق يبدو للشاب كأنه لانهاية له . ثم تمر به الأعوام بطيئة هينة دون أن يفطن إلى مرورها . وقــد يرى المرء في طريقه تلالاً معشبة وبيتاً ووجهاً جميلاً ، لكنه يظن أن ليس ذلك مايبحث عنه . ولكن بغتة ، وبشعور شبه غريزي ، يستدير المرء ليرى أن باباً كبيراً قد أغلق خلفه فقطع عليه طريق العودة .

لقد لفت نظره الكابتن أورتيز بأنه قضى في القلعة ثمانية عشر عاماً . كما أن آخرين في القلعة ينبهونه إلى أثرها المخدر وينصحه أحدهم بمغادرتها فوراً . وهو يشاهد بأم عينه كيف يرفض بعضهم مغادرة القلعة ولو لأسباب صحية خطرة . فهم يفضلون أن يمرضوا بل أن يموتوا فيها . حتى ان الطبيب الذي قضى خمسة وعشرين عاماً في القلعة يعرض على دروجو اجازة صحية فيرفض دروجو ثم

يدهش من نفسه ويروح يبحث عن أسباب الرفض ، فليست الرغبة في البطولة بالسبب الكافي لبقائه ، إذ أن هذه الحدود ميتة وغير مهددة . إلا أن ماجعله يقرر البقاء هو ما استقر في نفسه من عادات ، ومن زهو عسكري ، ومن ألفة عائلية لهذه الجدران التي اعتاد عليها . فحسب هذه الشهور الأربعة أن تنمي في نفسه التعلق بنظام الحرفة المطرد الرتيب ، وتجعل الأمر عنده عادة راسخة .

يبدأ الانتقال من الانسانية إلى العبودية بشعور واحد ، وهو أنه ليس هناك مخرج . ان كل فرد يعيش أسير شبكة من التقاليد المتعارف عليها ، تماماً كما يعيش القرود في الأقفاص . ولذافليس أمامه إلا أن يعمل مثل الآخرين .

وهكذا بدأ الزمان يمضي على غير علم منه ، وصار مثل الضباط الآخرين الذين قضوا عمرهم في القلعة ، يحلم بأن يستشهد في معركة تعطي حياته المجد المنتظر . وان كان حاكم القلعة العجوز قد مات أمام عينيه دون أن يتحقق له هذا الحلم بعد انتظار عمر باكمله .

بعد انتهاء أربعة أعوام انتزع دروجو نفسه وعاد إلى المدينة : قابل أمه فلم يتفجر بينهما ذلك الحب الرائع الذي كان ينتظره ؛ فهي الأخرى استسلمت لعادة فراقه . وقابل حبيبته السابقة وكانت تنتظره بلهفة ليتزوجا ، لكنه فقد مبادرات الشباب التي كانت تجعله يحتضنها ويقبلها طويلاً . أما الآن فقد غدا الحديث ثقيلاً مملاً بالرغم من الحب القديم الماثل بينهما .

وأخيراً قابل رئيسه وطلب النقل بعد الأعوام الأربعة ، ففوجىء بأن التقاليد تقضي بأن يقدم طلباً للنقل . وقد نسي ذلك ، في حين أن جميع زملائه قدموا

طلباتهم دون أن يخبروه . إن هذه الخدعة قضت على مستقبله فهو مضطر للعودة ، وقضت على كل ماتبقى في نفسه من رعشات الحياة .

غدا دروجو في القلعة يشعر بانسياب الزمن السريع ، وعبثاً حاول التمرد عليه . كان يتضايق من حياته في القلعة ، لكنه بدأ يغذي أملاً بأن في بقائه أمراً يستحق التضحية من أجله .

في هذه الاثناء يظهر على حدود الصحراء جنس غريب . انهم التتار . لكن الحكومة بدلاً من أن توعز الى حامية القلعة بصد الغزاة بدأت بسياسة تنازلات غريبة ، فقد رضيت بأن تخطط معهم حدوداً قريبة من القلعة فاستغل التتار هذه الفرصة وعبدوا كل الطرقات الموصلة إلى القلعة ، وخلال الأعوام العشرة التي تلت هذه الحادثة كان دروجو يشعر بالخطر ويحاول أن ينبه أولي الأمر بحكم رتبته العالية ، ولكن لم يستجب أحد لملاحظاته . لقد انسحبت فرق التتار بعد أن عبدت الطرقات وجعلتها مفتوحة أمام جيوشها .

حين أصبح دروجو في الرابعة والخمسين من عمره أصبح نائب القائد العام في القلعة . لكن صحته تدهورت وصار يضي بجواده للنزهة قرب القلعة ، فإذا به يلتقي بشاب تخرج حديثاً وهو يسأل عن القلعة ولاينوي أن يمضي فيها أكثر من أربعة شهور . . .

ان موضوع غزو التتار لم يعد أسطورة ، لكن أحداً في المدينة لايصدق خطورته . فهم ما زالوا يعتقدون أن القلعة « قطعة من الحدود الميتة » في حين أن دروجو غدا يؤمن بكلمات الكابتن أورتيز « الحدود هي الحدود » .

وعندما يحشد التتار قواتهم قرب القلعة وتصل التعزيزات لتدافع عنها ، يكون دروجو في أقصى درجات المرض ، فيحملونه بالرغم عنه على مركبة حيث

يموت في الطريق حتف أنفه دون أن يشهد مجد معركة ظل يتمناها ثلاثين عاماً . كان يعرف أن القلعة ستسقط في أيدي الغزاة ، لكنه كان يتمنى أن يموت في المعركة ، ولم يتح له أن يموت في معركة ولو خاسرة . ان الروتين الذي قضى عليه بأن يخسر حياته هو الروتين الذي قضى على مجتمعه بأن يخسر حدوده ، في عالم لا يربح أحد فيه شيئاً .

ان هذه الرواية الدائرية التي تتكرر فيها الحوادث بالانتقال من شخص الى شخص و كأنها وباء معد،هي الشكل الأكثر ملاءمة لاستيعاب رواية المصير. حيث يكشف الكاتب عن معنى – أو لامعنى – الحياة والمجتمع .

ان الحياة فيها تظل كما هي في المستوى الواقعي ، دون أن تفقد شيئاً من تفاهتها وهكذا تغدو الرواية بهذا النمط أقرب من غيرها الى الحياة اليومية. إلا أن ما يحدث فيها لا يمكن تفسيره في نهاية المطاف ، على مستوى الواقعية العامة. فالرموز الأدبية عاجزة عجز الواقعية الأدبية البسيطة عن تفسير قسوة الوضع البشري وخلوه من المعنى .

وكما كان كاهن الأسرار عند اليونانيين ، هو ذا كاتب يقوم موضوعه على حكاية غير رمزية ، إلا أنها لا تفسر نهائياً ولا تأول . واذا كانت تفتن الناس وتبدو لهم حقيقية ، فما ذاك إلا لأن كل جزئياتها تنتمي الى الواقع ، ولأنها تعبر أصلاً عن الحقيقة . ان الحقيقة المعاشة تظل أمراً لا يمكن الولوج فيه ، سواء كانت معاشة على مستوى واقعية البورجوازي الراضي عن نفسه ، أم على مستوى الصوفي أو الثائر . وان كتاب روايات المصير ليطاردون هذا السر ..

ديوان العيد [1]

شعر: يوسف العيد

عرض: ظافر عبد الواحد

ولد يوسف العيد سنة ١٨٩٩ ، في قرية عرمان في محافظة السويداء السورية ، بدأ تعليمه الابتدائي في قريته وأتمه في دمشق ، حيث بدأ تعليمه الإعدادي . ولما يئس أبوه من تعليمه الزراعة ، افتتح له متجراً . ولكن نفس الفتى كانت توافة للاغتراب ، فمارس التجارة في دمشق ، حتى اذا خسر رحل سنة ١٩٢٣ الى المكسيك ونجحت تجارته وبعد ست سنين عاد الى مسقط رأسه ، وصحب أسرته الى الارجنتين وخسرت تجارته في البدء ، لانهماكه في المطالعة . وتفتحت قريحته عن الشعر . وأصدر مجلة (الوحدة العربية) التي استمرت نحو عشر سنين ، ثم أوقفها وبدأ في ٥ تموز (يوليو) ١٩٤٩ رحلة زار فيها مصر ولبنان وسورية وشرق الاردن والعراق . وبعد أن جال في القارة الامريكية ، أطلق عليه الادباء والصحفيون لقب الرحالة . واصدر الكتب التالية : (شعلة

---

(١) الارجنتين ٩٦٩

الوطنية) و (العرب هكذا رأيتهم) و (هؤلاء أضاعوا فلسطين) و (جولات في العالم الجديد) . وترجم عن الاسبانية (تاريخ مستعمرات انكلترا) . كان أمين سر أول لجنة تأسست للدفاع عن فلسطين في الأرجنتين ، وعضواً في لجنة الدعاية والنشر في اللجنة العمومية للدفاع عن فلسطين ، وأحد مؤسسي نـــدوة الأدب العربي .

ومعظم شعره في الحكمة والقومية ، ثم في المدح والرثاء ، وله شعر وجداني وفي الفخر ، وأقله في الوصف والغزل ، وفي (ديوان العيد) قصيدتان، كان الغرض منها إثبات مقدرة الشاعر على استعمال القوافي الصعبة .

فمن شعر الحكمة قصيدته (الصعود إلى القمر)[1] التي تخيل فيها رحلة الانسان الى القمر قبل أوانها :

جـــابوا السما بمراكب ناريـة ... واستوطنوا قمر الدنى السيّارا
فغدت لهم أقطاره للجوب في ... أرجائهـــا كفوارس مضمارا
والطائرات بجوه خفاقـــة ... تستكشف الأحراج والأغوارا
فؤادها كالرعد يقصف صاخباً ... واللمع فيها يخطف الأبصـــارا
ماذا العجيبة ؟ قال ابناء السما ... لما رأوا الزفرات فيهـــا نارا
وغدا الجميع إلى المراكب شاخصاً ... متقدمـاً متأخراً محتـــارا
أزلازل تنقض من أجوائنـــا ... متسائلين ليكشفوا الأسرارا
وتجمهروا حول الدويّ بحيرة ... وسنا المراكب يدهش الأفكارا
من أرض آدم قال قائدها لهم ... جار لكم لاتعجبوا إن زارا
من عالم العدوان والكفران حيث ... به الورى يتعبد الدينـــارا

(١) الديوان ص ٢٦ – ٢٧

ونراه في شعره القومي ، حرباً على الطائفية ، كغيره من شعراء المهجر. فينظم ، وهو المسيحي ، قصيدة (الرسول محمد)[1] :

الله أرسله رسولا أحمدا فأطاعه مستشهداً وموحدا
ومشت به روح العلي إذ بددت في الجاهلية مشتهاها المفسدا
لله أشهد يانبي الله أن الله أعطاك النبوءة للهدى

ولسان الشاعر عفيف من الهجاء ، رغم فضحه تآمر الحكام العرب في كتبه ، ولم يمدح حاكماً . وإنما مدحه للشعراء والصحافة ورجال الدين والأمهات ورغم ان الخطاط ألبير شويرى كتب له قصائد الديوان ، فلم يحتج إلى تنضيد حروف ، فانه يمدح منضد الحروف بقصيدة . قال في حفلة أقيمت في ندوة الأدب العربي تكريماً لشعراء زحلة اللبنانيين :

حب الحمى في داخلي يشكو النوى وليعده قلبي يزيد تسعرا
وخيالتي ترنو له منكوبة في النكبة الخزيا تئن تحسرا[2]

أما شعره الوجداني ، فمعظمه حنين إلى الوطن : (الحنين للوطن) ، (الشاعر العائد الى الحمى) ، (المغترب) ، (كيف نودع العائدين للوطن) ، (مناجاة المغترب) ، (سرير الطفل الوطن الأم) ، (جبل العرب) ، (حلم في لبنان) ، (لبنان) .

يقول في قصيدة (الحنين للوطن)[3] :

---

(١) الديوان ص ١٤٦ — ١٤٧
(٢) الديوان ص ١٦٤ — ١٦٥
(٣) الديوان ص ٨٢ — ٨٤

أعلل نفسي أن أزور الحمى غدا | بطائرة سباقة الريح والصدى
أحن إلى تلك الربوع كفاطم | تحن إلى مفطومها حين أبعدا
ربوعي ربوع العز والمجد والنهى | بلاد المعالي والمسيح وأحمدا

وكان يمكنه أن يقول في عجز البيت الأول (بطائرة نفاثة تسبق الصدى) لأن الطائرات الشراعية وحدها هي التي تسير بسرعة الريح. وهو صادق العاطفة في الرثاء، رثى أمه وبعض الشعراء وكان آخرهم الأخطل الصغير، كما رثى بعض الشخصيات العربية والعالمية كفارس الخوري ومارتين كنغ، ومن أرق قصائده في الرثاء (مات لما تلمس أوتار الكمنجة)[1]، وقد ألقيت في النادي الحمصي في رثاء المدير السابق لمكتب جامعة الدول العربية في الارجنتين عصام حلمي المصري، الذي توفي لاصراره على العزف على الكمان رغم نهي الطبيب له عن ذلك، ومطلعها:

ضم الكمنجة بالفؤاد الباكي | والدمع غار من اللقاء الزاكي

وفضلاً عن أنه استعمل كلمة (الزاكي) بدل (الزكي)، فاننا نلاحظ الارتجال في انتقائه القوافي، فلا فرق عنده أن يقول (الزاكي) أو (الشاكي) أو (الحاكي)..

ويبدو أن بعض أصدقائه يداعبونه بالتقليل من قيمة شعره، وإذا كان أقل شعره في الفخر، فان أكثر فخره بشعره: (القريض والمشيب)، (طيوف الشعر)، (الحماس)، (الشاعر الفخور بشعره).

قال عندما منح وسام الاستحقاق السوري:

---

(١) الديوان ص ١٩٣ - ١٩٤

فوق الأثير يطوف زهوي حاديا شعراً عن الدنيــا سفيراً راويا
ويشنف الأجواء في خطراتــه وصداه يحدو للنجوم أغانيــا
في اللا نهــاية حيث نفسي تعتلي أنشأت للشعر الرقيــق نواديا
وخــلقت للحوبة البيضا دنى ورفقت طيراً في سماها شاديا (١)

ويكاد وصفـــه يقتصر على الزهر : (الوردة البيضاء) ، (الربيع) ، (بائعة الزهور) ، (هكذا الزهر يغني) [٢] ، ومطلع هذه القصيدة :

رفت الأزهار نشوى تتمطى بالنســيم

وليس في باب الغزل ، غير ثلاث قصائد . يقول في قصيدة (القبل) [٣] :

للحسان الشعر أشدوه صباحا ولهن الثم لي شعري أباحــا

ونلاحظ أنه اضطر الى القول (ولهن الثم) بدل (لثمهن)

وهو مغرم بالصنعة الشعرية . وعندما تحداه أحد زملائه في ندوة الأدب العربي أن يستعمل القوافي الصعبة ، قال في قصيدة زينية :

الشيب ينتــابني في اللمز والهمز همساً بأذني كهمس الهاتف الركز
يقول لي كنت في التشبيب أول شب في القوافي وصرت اليوم في العجز (١)

ورغم الركاكة ، في كلمة (شب) ، نجد البيت الثاني مكسوراً .

إنني لم أر في الديوان شعراً ، بقدر ما رأيت فيه الشاعر الرحالة نفسه . إنه شاعر التجار ، وليس تاجر الشعراء ، لأنه لم يتكسب بشعره . إنني أراه في

(١) الديوان ص ٣٤ — ٣٥
(٢) الديوان ص ٧٠ — ٧١
(٣) الديوان ص ٧٧
(١) الديوان ص ٤١ — ٤٢

متجره الناجح ، كما يبدو من طباعة الديوان بطريقة (الأوفست) وبخط اليد على ورق يصلح غلافاً ، وبغلاف يمكن أن يصنع منه فاخر الأثاث . وأحسب أنه لم يطرح الديوان للبيع ، وإنما آثر به الشخصيات والمؤسسات الثقافية في المهجر والوطن الأم . وكأني بمتجره ندوة يداعبه فيها الأدباء ، فلا تلهيه تجارة عن الرد عليهم شعراً . ولكن مكانه الأثير ، في (ندوة الأدب العربي) مساء . وحسبه تعلقه بلغته العربية في غربته .

مخطوطات عربية [1]

في مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية

تصنيف : د. يوسف عز الدين

عندما زار الدكتور يوسف عز الدين الأمين العام للمجمع العلمي العراقي مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية (كيرل وميثودي) سنة ١٩٦٧ ، وجد المخطوطات العربية فيها تزيد على ثلاثة آلاف مخطوطة في جميع فروع المعرفة ، وأكثرها في الفقه والفتاوى الشرعية وفقه اللغة والنحو والصرف والبديع والبيان والفلسفة الاسلامية وعلم الكلام وآداب البحث والمنـــاظرة . كما وجد فيها حوالي مئتي مخطوطة في الطب والفلك والرياضيات ، وحوالي تسعين نسخة من المصحف .

وعندمـا حاول أن يفهرس مخطوطات الأدب والتاريخ والجغرافية ــ وهي أقل المخطوطات عدداً ــ وجد صعوبة كبيرة في التصنيف ، لأن قسماً منها كان ناقصاً .

---

(١) مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٦٨

وقد جمعت المخطوطات العربية من الجوامع والمدارس الدينية الاسلامية ومن مكتبات الأوقاف التي كانت منتشرة في بلغارية . وأهم المدن التي ورد ذكرها في المخطوطات : ودن ، وصماقو ، وفيدين ، وشومن ، وصوفيا . وقد جلب قسم من المخطوطات من القاهرة وبغداد واستانبول وغيرها من المدن الاسلامية .

ولعل أقدم مخطوطات المكتبة كتاب (لطائف الاشارات) لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن الشقيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ .

وفي المكتبة نسخ نادرة وعلى رأسها (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الادريسي ، وهي نسخة كاملة حوت خرائط ملونة وكتبت على ورق ممتاز ؛ وقد حقق المستشرق البلغاري بوريس كريستوف نوكوف الجزء الخاص ببلغارية والأراضي المجاورة لها خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، ونشره باللغة البلغارية ، وأورد في كتابه النص العربي المتعلق بالموضوع . وقد وجدت النسخة في جامع شومان وهي منسوخة سنة ١٥٠٥ م ومقابلة على نسخة اصلية ، ويرى الأستاذ نوكوف أن الخرائط لم يرسمها الادريسي نفسه لوجود اختلاف واضح بين الخرائط ونصوص الكتاب .

يصنف الكتاب ٢٨٧ مخطوطة ، وربما كان للمخطوطة أكثر من نسخة ، كمقامات الحريري التي صنف منها خمس نسخ بعضها ناقص . تحمل نسختان منها رقم OR ٨٢١ ، واثنتـــان رقم ١٨٠١ ، وواحدة رقم OR ٢٢٢ ويرمز الحرفان OR الى القسم الشرقي في المكتبة . وقد ذكر على احدى النسخ اسم المؤلف كاملا وسنة وفاته : أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري المتوفى سنة ٥١٦ هـ . واكتفي بذكر اسمه المختصر في نسختين : أبو محمد القاسم الحريري ،

أو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري . ولم يذكر اسم المؤلف في النسختين الباقيتين .

وتبلغ مساحة الصفحة في بعض النسخ ٢٠ × ١٤ سم ، وفي بعضها الآخر ٢٢ × ١٦ سم . ويبلغ عدد السطور في كل صفحة من صفحات النسخ الثلاث ، ثلاثة عشر سطراً . ويبلغ عدد السطور في كل صفحة من صفحات احدى النسخ ، عشرة سطور .

ويبدو ان عدد السطور في احدى النسخ متفاوت بين صفحة وأخرى . ويبلغ عدد أوراق المخطوطة في نسختين ٣٥٨ ورقة ، وفي نسختين اخريين سبع وعشرون ورقة ، وفي نسخة ٢٠٦ ورقة .

والنسخة الأولى كاملة وبخط واضح جميل ، وان لم يتبع الكاتب قواعد الخط ، وعلى المخطوطة بعض الهوامش والشروح . وتضم النسخة الثانية خمسين مقامة كاملة ، وفي أولها فهرس بالمقامات ، وهي نسخة جيدة الخط كتب على غلافها « المقامات الخمسون التي أنشأها الشيخ الرئيس » . وكنا نظن أن لقب (الشيخ الرئيس) وقف على ابن سينا . وهذه النسخة من مكتبة أوقاف (صماقو) .

أما النسخة الثالثة ، فقد دبت اليها الرطوبة ، وأثرت في خطها ، وقامت المكتبة باصلاحها .

والنسخة الرابعة ، من مكتبة اوقاف (صماقو) ، تحتوي على ثماني مقامات وبداية التاسعة ، وفيها ما يلي :

١ - شرح رمضان أفندي على شرح القصائد في علم الكلام والعقائد ، والمخطوطة ناقصة صفحة

٢ - رسالة في وظائف الجن

٣ – فن المناظرة ، تأليف محمد سجقلي زادة

٤ – شرح الكافية ، زيني زادة

٥ – مختصر المفتاح

٦ – موعظة المواعظ

٧ – جزء من مغني اللبيب

٨ – تلخيص مفتاح العلوم .

وتحتوي النسخة الخامسة على قسم من المقامات ، آخرها جزء من المقامة التاسعة : « ... الى أن جبت ما بين فرغانة وتقانة ... أخوض الخمار ... » . وفي آخر المقامات عدة رسائل :

١ – شرح رمضان أفندي على شرح العقائد

٢ – آداب البحث ، حاشية علي مير أبو الفتح في الآداب

٣ – الرسالة الولدية في آداب البحث ، محمد سجقلي زادة

٤ – شرح الكافية ، حسين بن أحمد الشهير بزيني زادة وهي ناقصة .

٥ – تلخيص المفتاح ، ناقص

٦ – موعظة المواعظ

٧ – مغني اللبيب (قسم منه) لابن هشام

٨ – مفاتيح القواعد ، بالتركية ، كمال باشا زادة

٩ – تلخيص المفتاح .

وقد صنفت المخطوطات في الكتاب على الأحرف الهجائية ، فتجد في حرف الميم ، مثلاً ، مخطوطة (مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب) . ويتبع الدكتور يوسف عز الدين الطريقة الشائعة في التصنيف ، فنجد في الصفحة ٢٩ :

- حرف التاء -

اسم المخطوطة : تاريخ ابن خلدون ج ١ - هذا المجلد هو المسمى بمقدمة ابن خلدون -

المؤلف : عبد الرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨

الرقم : OR ٢٦٣٨

الحجم : ٢١ × ١٤ سم عدد الأوراق : ٣٤٣ عدد السطور : ١٩

أولها :

يقول العبد الفقير .. أما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والأغفال ...

من المؤخرة . وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران . قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام ٧٧٩ ، ثم نقحته بعد ذلك ، وهذبته ، وألحقت به تواريخ الأمم ..

خط محمد بن محمد بن علي سنة ١١٤٧ .

نسخة جيدة الخط تملكها محمود الشريفي الحاوي سنة ١١٩٠ ثم انتقلت الى علي الراوي وعناوين الكتاب واضحة .

* * *

إن كتاب (مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية البلغـــارية) يذكرنا بأن مئات ألوف المخطوطات العربية منفية خارج الوطن العربي ، تركية

وبلغاريا وألمانيا وإسبانية ، في خزائن كتب استمبول وبورصة وصوفيا وهالة والإسكوريال . وإن المهمة الرئيسية لمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، هو تنسيق التعاون بين المجامع العلمية والأجهزة الثقافية في الدول العربية، بوضع خطة لمسح هذا التراث العربي المحفوظ والمنهوب ، وتوزيع جدول أعمال على الأجهزة المختصة للحصول على صور مصغرة (ميكرو فلم) لهذه المخطوطات العربية ، وإصدار نشرات دورية تتضمن معلومات مكتبية عن المخطوطات، مثل التي تضمنها هذا الكتاب . إن هذه الخطة إذا تم تنفيذها خلال سنوات ، ستسمح بتنفيذ خطة تالية ، بحيث لا تبقى المخطوطات مجرد تراث نعتز به كما يتباهى البخيل بثروته المكنوزة .

إن تحقيق التراث ونشره يجب ألا يبقى رهن الارتجال : كلما تعثر أحدنا بمخطوطة راقت له ، عكف على تحقيقها . بل يجب وضع نظام للأفضليات بين المخطوطات، وتوزيعها على المختصين لتحقيقها، بحيث ينشر من المخطوطات مايساعدنا على استعادة دورنا الحضاري .

ظ. ع

الشرق العربي
في ساعة الاختبار (١)

تأليف : پافل ديمتشنكو

عرض : ميشيل كيلو

يقدم هذا الكتيب ـ الذي يقع في مائة واربعين صفحة من القطع الصغير ـ وجهة النظر السوفياتية في العدوان الذي وقع على الأمة العربية في حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧ . ومع أن مؤلفه صحفي سوفياتي، إلا أنه صحفي في جريدة «البرافدا»، صحيفة الحزب المركزية» وهو فضلاً عن ذلك رجل عايش أحداث الشرق العربي لفترة طويلة . ويدل كتيبه على معرفة واطلاع كبيرين في شؤون هذه المنطقة ، التاريخية والمعاصرة .

ويمكننا تقسيم الكتيب الى اقسام ثلاثة :

آ ـ مجرى العدوان واحداثه

ب ـ أسبابه .

حـ ـ الوضع الحالي في الشرق العربي .

أما مجريات العدوان وأحداثه فلسنا بحاجة للتحدث عنها بعد أن سمعنا

---

(١) ترجمة جعفر دك الباب . منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٩

وقرأنا عنها التفاصيل الكثيرة، وإن كان يجدر بنا هنا أن نذكر حقيقتين أساسيتين حول مجرى العدوان :

١ً) استفاد العدو من التناقضات التي كانت تميز الجيوش العربية خلال الحرب ، والتي تركزت على التناقض مـــا بين حركة الجماهير المعادية للاستعمار كحركة تحرر وطني، وبين القيادات العسكرية البيروقراطية التي عملت بحكم طابعها الطبقي على افراغ حركة الجماهير هذه من محتواها المعادي للامبريالية، كما عملت على تجنب المعركة مع العدو، لأنها كانت قد بنت استراتيجيتها أصلاً على عدم استفزاز الامبريالية إلى درجة الصدام معها .

٢ً) لم تمر الحرب دون مقاومة من بعض القطاعات الثورية في الجيوش العربية ، فقد قاومت القوات المصرية بضراوة في معارك كثيرة ، ولم يستسلم الجنود حيث صمد قادتهم معهم ، بل استشهدوا وصدورهم إلى العدو .

أما أسباب العدوان فهي تكمن بالنسبة للمؤلف أولاً واخيراً في تعاظم حركة التحرر العربي التي بدأت تأخذ أحجامـــاً خطيرة بالنسبة لمجمل الوجود الامبريالي في المنطقة ، وخاصة في مصر وسوريا والجزائر ، حيث تتركز هذه الحركة . لقد حددت جريدة « إيسترن وورلد » أهداف السياسة الامبريالية في الشرق العربي فقالت : « إذا تحدثنا بلغة بسيطة ، فإن الاهداف الاستراتيجية للغرب في هذه المنطقة من العـــالم هي : ١ً) الحفاظ على المواقع الاقتصادية . ٢ً) أن يكون له رأس جسر لاستعماله في حالة الحرب ضد الاتحاد السوفياتي .(١) لقد هددت التحولات الاجتماعية التي تشهدها المنطقة منـــذ عدة أعوام المصالح الاقتصادية للغرب أولاً ولرأس المال الخاص ثانياً ، وبلغ التهديد ذروته في

(١) الشرق العربي في ساعة الاختبار : ص ٩٨ .

الاجراءات التي اتخذت في الجزائر وسوريا ومصر لاستخراج البترول وطنياً - كما تحولت المعركة السياسية والاجتماعية ضد الغرب إلى معركة ضد قواعده العسكرية في المنطقة ، وهو ما هدد بدوره حرية الغرب في استخدام الوطن العربي كرأس جسر ضد الاتحاد السوفياتي .

هـذا التصاعد في حركة التحرر الوطني رافق ازدياد القوة العسكرية العربية وبداية حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، وهو ما دفع القوى الاستعمارية إلى التفكير باستخدام القاعدة الصهيونية في فلسطين المحتلة التي كانت تعاني من مصاعب متعددة ، منها نقص الهجرة وازدياد البطالة وهرب العقول الى الغرب وازدياد العجز المالي . وقد وجد الامبرياليون فرصة الهجوم خلال المعركة البترولية التي خاضتها سورية ضد شركة نفط العراق وربحتها . « وحين اعترفت الشركة في آذار من عام ١٩٦٧ بطالب سورية ، تنبأ بعض الصحفيين بأن الامبرياليين سيحاولون أن يبرهنوا للبلدان العربية بأنهم لا ينوون الانسحاب دون معركة ، وفي الواقع لم يمض شهر حتى قامت اسرائيل بحملة كبيرة في المنطقة المجردة من السلاح التي تفصل مراكز الحدود السورية والاسرائيلية ، واستخدمت الدبابات والمدفعية ، وارتفعت في الجو المقاتلات الاسرائيلية والسورية ، ويمكن الاستنتاج بأن ذلك كان استطلاعاً لا بد منه قبل البدء بعمليات اكبر » (١) .

خلال هذه الفترة وقبلها تدفقت على اسرائيل كل انواع المساعدات التي تمكنها من العمل حين تريد وبريد حلفاؤها الغربيون ، فقد تلقت مليارات الدولارات كمساعدات ، وتلقت كميات هائلة من الأسلحة ، فضلاً عن أن جيشها كان يستخدم كمدرسة لتعلم العدوان الذي جاهرت دوماً بأنه محتوى سياستها الخارجية ومبررها .

(١) الشرق العربي في ساعة الاختبار : ص ١٠٤ .

هكذا تحرك هذا الجيش في الخامس من حزيران ، أما نتائج تحركه فهي معروفة ولا داعي لتكرارها ، ولكنه يجدر بنا أن نذكر هنا تصريحات أطلقها القادة الصهاينة ، وهي تدل دلالة قاطعة على أن العدوان كان نتيجة لتلاق مطلق في مصالح الامبريالية الاميركية والالمانية الغربية والبريطانية مع مصالح اسرائيل ، فقد أعلن أشكول في مقابلة له مع جريدة « نيويورك تايمز » أنه تم اعلام قادة الولايات المتحدة بالخطط الاسرائيلية ، كما صرح فيما بعد متذكراً الأيام التي سبقت العدوان قائلا : « لقد رأى كثيرون منا أن في وسعنا أن نقدم لجونسون خدمة جلى لو بدأنا العمل »[1] .

يخلص مؤلف الكتيب من ذلك ، الى أن العدوان جاء نتيجة لصعود حركة التحرر الوطني ، وبالذات نتيجة لتحولاتها الاجتماعية التي تجاوزت ما تسمح به الامبريالية أو ما تسكت عنه . ولقد كان هدف العدوان الأكبر هو اسقاط هذه الحركة وضرب الدول التي تمثلها ، ولكن فشل العدوان في تحقيق هذا الهدف ووقوف الاتحاد السوفياتي والقوى العالمية التقدمية وراء الامة العربية كان يعني بداية نهاية العدوان ، لأن بقاء حركة التحرر العربي يعني استمرار الصراع والاستفادة من دروس التجربة السابقة ، ويأتي في مقدمتها توطيد التحولات الاجتماعية ودعم القوى المعادية للامبريالية وبناء جيوش عربية لا تقودها البيروقراطية العسكرية وتوطيد الصداقة والتعاون مع بلدان المنظومة الاشتراكية ، كما يقول المؤلف .

---

(١) ص ١١٧ من الكتاب

لبنان [1]

بين مشرق ومغرب

١٩٢٠ - ١٩٦٩

تأليف : محمد جميل بيهم

يمتاز هذا الكتاب بما يحتويه من معلومات عن الأحداث التي جرت في لبنان من سنة ١٩٥٠ – ١٩٦٩ ، عاصرها المؤلف ولعب دوراً في بعضهـــا . وكان المؤلف يرى أن البنية التحتية للبنان هي بنية طائفية ، وأن هذه البنية هي التي حددت البنية السياسية الفوقية ، فكان لبنان منقسماً أبداً الى فئتين : فئة مع الاحتلال وفئة ضد الاحتلال ، فئة مع الاصلاح وفئة مع الاستقلال ، فئة مع قضية فلسطين وفئة مع الكيان اللبناني ... من ذلك اعتباره (النهج) و (الحلف الثلاثي) تكتلين طائفيين ، مع أنه يذكر أن أحد أركان النهج أورد أمثلة عن دعاية الحلف الثلاثي (المتهم بالطائفية المسيحية) ، زعم فيها رجال

(١) بيروت ١٩٦٩ .

الحلف انه « إذا انتصرت لائحة الياس الخازن وفؤاد البون وموريس زوين ونفاع في كسروان ، فان تمثال العذراء سينقل من حريصا » .

لذلك فاننا نفضل أن نعود الى كتاب المؤلف (عروبة لبنان) ، لنرى البنية التحتية الحقيقية ، وهي بنية قبلية ، تتخذ لنفسها بنى فوقية ، تارة دينية ، وتارة سياسية . فهناك العشائر العربية التي اتخذت في معظمها الاسلام ديناً ، وهناك العناصر المستعربة التي اعتنق بعضها الاسلام ، ومع ذلك فانك ترى في الأسرة الواحدة أكثر من مذهب ، وترى التعصب للأسرة قبل المذهب . ولا تخدعنا القسمات الطارئة ، فما أسرع ما يعود المرء الى عشيرته عندما يتهدد مصيره .

يبدأ المؤلف الكتاب بشرح أوضاع لبنان بعد الحرب العالمية الأولى وفي عهد الانتداب ، فيرى أن المغتربين نقلوا الانقسام الى مهاجرهم . يذكر أن الهيئة العربية العليا لفلسطين انتدبته سنة ١٩٣٨ للدفاع في القارة الامريكية عن وجهة النظر العربية في قضية فلسطين . ويشرح كيف استطاع أن يقنع صحيفة لبنانية موالية للانتداب بالدفاع عن القضية الفلسطينية .

ويحاول المؤرخ بيهم أن يثبت عروبة لبنان في عهد الاستقلال ، فيناقش الأستاذ نجيب الدحداح فيما ذهب اليه في كتابه (التطور التاريخي في لبنان) — باللغتين الفرنسية والاسبانية — في اعتباره لبنان كياناً مستقلا في التاريخ عن سائر سورية . فيعارضه الأستاذ بيهم لاعتباره العرب في سياق الشعوب المندمجة في الكيان اللبناني . وسواء كان اللبنانيون من أصل عربي أم لا ، فان القومية العربية ليست قومية عرقية ، وإنما هي قومية حضارية ، فكل من يحمل الثقافة العربية هو عربي .

وينتبه المؤرخ بيهم الى أهمية الثقافة العربية في اثبات عروبة لبنان ، ففي

تعليقاته على المخاوف والمزاعم التي راجت بلبنان في عهدي الانتداب والاستقلال، يرد على الدعوة الى الكتابة باللغة العامية (١) .

ويؤرخ الأستاذ بيهم للفترة العصيبة التي مر بها لبنان سنة ١٩٥٨ ، وعاشها المؤلف عن كثب ، بل واتصل به رئيس الجمهورية في محاولة لكسب صداقة آل بيهم ومؤيديهم . ويروي لنا حوادث طريفة تدل على أن لبنان يظل متجراً لا للبضائع الاستهلاكية وحسب ، وإنما للاسلحة أيضاً . وينشر ترجمة فصل هام من كتاب (ديبلوماسي بين المحاربين) لمبعوث الرئيس الأمريكي ايزنهاور الى لبنان في تلك الاثناء ، وفي هذا الفصل يشرح المبعوث أبعاد مهمته بتحفظ وما لاقاه من تعاون وجفاء من المسؤولين وغير المسؤولين في لبنان .

وأقف عند هذا الحد من الكتاب ، كيلا أدخل في التفاصيل السياسية .

ظ . ع